د. جميل حمداوي

من الحجاج إلى البلاغة الجديدة



سامراء

من الحجاج
إلى البلاغة الجديدة

المؤلف : **د. جميل حمداوي**
عنوان الكتاب: **من الحجاج إلى البلاغة الجديدة**
رقم الإيداع القانوني : 2013 MO 3100
ردمك : 978-9981-25-944-7
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 22 05 - 13 98 25 22 05
الفاكس: 20 29 25 22 05 - 80 00 44 22 05
مكتب التصفيف التقني :39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف: 54 / 53 67 29 22 05 الفاكس: 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E-Mail : africorient@yahoo.fr
www. afrique-orient.com

د. جميل حمداوي

من الحجاج إلى البلاغة الجديدة

أفريقيا الشرق

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ابنتي الوحيدة والغالية مريم حمداوي، داعيا الله سبحانه وتعالى أن يوفقها في حياتها الدراسية والمستقبلية.

تقديـــم

يتناول كتابي في الفصل الأول مجموعة من النظريات الحجاجية القديمة والمعاصرة، من بينها : نظرية الحجاج الجدلي، والنظرية الكلاسيكية في الحجاج البلاغي مع أرسطو، والنظرية الجديدة في الحجاج البلاغي مع الأرسطيين الجدد كشايم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا، ونظرية الحجاج اللغوي مع أنسكومبر وأوزوالد دوكرو، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أموسي وميشيل مايير وغيرهما، ونظرية الحجاج المنطقي الطبيعي مع جان بليز غرايس، ونظرية الحجاج التداولي المرتبطة بأفعال الكلام والاستلزام الحواري. وتنتهي هذه الدراسة باستعراض أهم مبادئ المقاربة الحجاجية على مستوى التحليل والتطبيق والإجراء.

ومن جهة أخرى، يتناول هذا الكتاب في الفصل الثاني البلاغة بين مرحلتين: مرحلة البلاغة الكلاسيكية ومرحلة البلاغة الجديدة. وإذا كانت البلاغة التقليدية بلاغة معيارية تعليمية تربط فن البلاغة بالخطابة والإقناع والإمتاع والبيان، فإن البلاغة الجديدة قد تعاملت مع الخطابات النصية المختلفة منذ منتصف القرن العشرين تعاملا علميا وصفيا جديدا، ضمن مجموعة من الاتجاهات : لسانية، وأسلوبية، وحجاجية، وتداولية، وسيميائية. وأكثر من هذا، فقد أصبحت للبلاغة اليوم إمبراطورية واسعة وامتدادات شاسعة.

وأتمنى من الله عز وجل أن يلقى هذا الكتاب المتواضع ترحيبا من لدن القارئ، ورضا عنه، وأشكر الله كثيرا على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأحمده على علمه وفضائله. والله ولي التوفيق. وتم بحمد الله بمدينة الناظور في سبتمبر 08 / 2013م.



قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

سورة النحل الآية: 125.

الفصل الأول

نظريات الحجــاج

توطئــة

لقد كثر الحديث اليوم عن الحجاج ودوره الناجع في مقاربة مختلف الخطابات العلمية والإنسانية والثقافية، وقد تناولته بالتحليل والدرس والتقويم والمعالجة دراسات وأبحاث وكتب ومقالات من الصعب حصرها؛ إذ أصبح الحجاج موضوعا لافتا للانتباه بسبب حضوره الكلي أو الجزئي أو الضمني في مجموعة من الخطابات، سواء أكانت فلسفية أم أخلاقية أم قضائية أم أدبية أم سياسية أم سيميائية أم لسانية أم اجتماعية أم فنية . . .ويعني هذا أن عصرنا هو عصر الحجاج والجدال والإقناع والتأثير والحوار، سيما مع تطور وسائل الإعلام، وانتعاش الديمقراطية في مجموعة من الدول الغربية والعربية. ومافتئت الحاجة ماسة إليه بعد أن كثر الخلاف والعنف والتطرف والإرهاب؛ لأن الحجاج سبيل العقل والمنطق والاختلاف والتسامح والحوار البناء والجدال الحسن.

ومن هنا، أصبح الحجاج أداة لمناقشة الأفكار مهما كانت طبيعتها ومصداقيتها، وغدا آلية مهمة في محاورة الأطراف المشاركة في عملية التواصل، والغرض من كل ذلك هو التأثير أو الإقناع أو الحوار، أو مناقشة الآراء المطروحة بالتشكيك في صحتها أو معارضتها أو تأييدها أو تثبيتها، أو اقتراح أفكار أخرى للوصول إلى جواب مقنع وشاف

لمجموعة من القضايا والأسئلة الخلافية التي يتجادل حولها الناس والمفكرون والعلماء على حد سواء.

وللإشارة، فليس الحجاج ظاهرة فكرية حديثة، بل له امتدادات قديمة خاصة عند العلماء اليونان والرومان والمسلمين، ويتجلى الحجاج واضحا في ثقافتنا العربية الإسلامية في علم الكلام والفلسفة وعلم الأصول والنحو والمناظرة والمنطق والخطابة... وأكثر من هذا، فثمة في عصرنا هذا خطابات حجاجية بامتياز توظف الإقناع أو التأثير أو الحوار مباشرة كما نجد ذلك في الإشهار أو السياسة. وفي المقابل، نجد خطابات أخرى توظف الحجاج بطريقة غير مباشرة، بالاعتماد على التخييل والرمزي والجمالي والفني كما في الرواية والقصة والمسرح والسينما ....

هذا، وينبني الحجاج في طابعه العام على طرح الدعوى والدعوى المضادة، واستعراض الحجج والأدلة والأمثلة لإفحام الخصم، بغية الوصول إلى نتيجة قد يقتنع بها المتلقي أو لا يقتنع . كما يستند الحجاج إلى مجموعة من الآليات الاستدلالية وأساليب التفسير والبرهنة، مثل: أسلوب التعريف، وأسلوب الوصف، وأسلوب السرد والوقائع، وأسلوب الشرط والافتراض، وأسلوب التمثيل، وأسلوب المقارنة، وأسلوب التقويم والحكم، دون أن ننسى بعض الآليات الحجاجية الأخرى، مثل: الشرح، والاستقراء، والقياس، والاستدلال، والتعارض، والجدل، والتطابق، والاستثناء، والهدف، والسبب، والإضافة، والنتيجة، واستعمال الفعل المضارع الدال على الحضور، وتمثل الصدق والحقيقة ، وتوظيف الظروف بكل أنواعها لاسيما الدالة على الحجاجية، مثل: من الأكيد، وربما، ومن المحتمل، ومن المفترض، ومن الثابت... والاستعانة بضمير المتكلم، والانطلاق من الذاتية في الخطاب، وتوظيف أحكام التقويم، والتدخل في الخطاب عن طريق

مجموعة من المؤشرات التلفظية الذاتية والنبرات التنغيمية الدالة على التعجب أو التهكم أو السخرية... ويقوم الحجاج كذلك على الجدل المبني على الأطروحة ونقيضها وتركيبها، واستعمال أنواع مختلفة من الأدلة كالأدلة المنطقية، وأدلة الواقع والتجربة، وأدلة الاستشهاد والتضمين والاقتباس، وأدلة المقايسة والمماثلة...

ومن جهة أخرى، يهدف المتكلم المحاجج إلى التأثير على المتلقي باستعمال ضمير المخاطب، والترغيب والترهيب، وصيغ التنبيه والتأثير والإقناع، وأساليب النداء والحث والنصيحة والإرشاد... فضلا عن الصور البلاغية وأساليب التحفيز والتطويع...

وعليه، يمكن الحديث عن مجموعة من النظريات والاتجاهات الحجاجية قديما وحديثا.إذا، ماهي أهم هذه النظريات الحجاجية ؟ وماهي تصوراتها ؟ وماهي مميزاتها النظرية والتطبيقية؟ وماهي آليات المقاربة الحجاجية في تحليل النصوص والخطابات إجراء وتطبيقا وتوظيفا؟ هذا ما سنستجليه في موضوعنا هذا.

نظريـة الحجـاج الجدلـي

يراد بالجدل أو الديالكتيك (Dialectique) الجدل أو المحاورة أو استعراض الأفكار المتناقضة حول موضوع ما.أي: إن الجدل هو تبادل الحجج والأفكار وتبادل وجهات النظر المختلفة من أجل الوصول إلى الحقيقة ، أو هو ذلك الجدال بين طرفين دفاعًا عن وجهة نظر معينة، ويكون غالبا تحت لواء المنطق أو اللوغوس أو مقاييس الاستدلال. وينبني الجدل في المادية التاريخية الهيجيلية أو الماركسية على الأطروحة (thèse) والنقيض (antithèse) والتركيب (synthèse). وقد يكون الجدل كميا أو كيفيا، ويقوم بدور كبير في تغيير المجتمعات الإنسانية، ويتحكم بشكل من الأشكال في تاريخ صيرورة الطبقات

الاجتماعية. وقد أصبح الجدل في الفكر الفلسفي الحديث دالا على كل التناقضات المادية التي تعرفها المجتمعات الإنسانية . كما يؤشر أيضا على الدينامكية والحركية والتغيير.

ومن جهة أخرى، كان الجدل في دلالاته اللغوية الأولى يعني الكلام واللوغوس ، وقد تبلور هذا المصطلح مع الفيلسوف اليوناني زينون الإيلي، وانتعش فلسفيا مع سقراط وأفلاطون وهيجل وماركس، وتطور إبستمولوجيا مع جاستون باشلار...

ويمكن القول بأن الحجاج الجدلي هو الأقدم في تاريخ الإنسان ، حيث تحفل الكتب السماوية بالأخبار الدينية وقصص الرسل والأنبياء التي تتضمن الحجاج الجدلي، سيما الجدل الذي تتعارض عبره الهداية والضلال، أو الحق والباطل، أو التوحيد والشرك. وكان أغلب الرسل والأنبياء يجادلون قومهم بالتي هي أحسن، كما فعل نوح وعيسى وموسى وصالح وهود وإبراهيم ومحمد - صلوات الله عليهم جميعا - مع أقوامهم. وفي هذا النطاق، يقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1]

ولقد استعمل الجدال الحسن أيضا عند المسلمين في مجادلتهم للناس الضالين ومجادلة الفرق المنحرفة وأهل البدع ، ومحاورة أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة. وعلى الرغم من إيجابية الجدل الحسن، فقد يتحول في أحيان أخرى إلى جدل سلبي، يكمن في المعارضة من أجل المعارضة أو الخلاف من أجل الخلاف، ولا يراد به إلا الضلال الباطل والنقاش العقيم. وفي هذا الصدد، يقول الله

1 - سورة النحل، الآية: 125، القرآن الكريم برواية ورش لقراءة نافع .

تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2]

هذا، وقد عرف الفلاسفة اليونان الأوائل بالمنهج الجدلي كما هو حال سقراط وأفلاطون والسفسطائيين، واتخذوه منهجا لإقناع الآخرين أو التأثير فيهم، واستعمل أيضا وسيلة للوصول إلى الحقيقة أو بناء المعرفة الحقة. بيد أن هناك من استعمله للتضليل والتشكيك وتعتيم الحقيقة كما عند معلمي السفسطة.

وعليه، فقد ظهرت المدرسة السفسطائية في القرن الخامس قبل الميلاد، بعدما أن انتقل المجتمع الأثيني من طابع زراعي إقطاعي مرتبط بالقبيلة إلى مجتمع تجاري يهتم بتطوير الصناعات، وتنمية الحرف، والاعتماد على الكفاءة الفردية والمبادرة الحرة. وأصبح المجتمع في ظل صعود هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة (رجال التجارة وأرباب الصناعات) مجتمعا ديمقراطيا، يستند إلى حرية التعبير، والاحتكام إلى المجالس الانتخابية، والتصويت بالأغلبية. ولم يعد هناك ما يسمى بالحكم الوراثي أو التفويض الإلهي، بل أصبح المواطن الحر له الحق الكامل في الوصول إلى أعلى مراتب السلطة. لذلك، سارع أبناء الأغنياء إلى تعلم فن الخطابة والجدل السياسي لإفحام خصومهم السياسيين. وهنا، ظهر السفسطائيون لكي يزودوا هؤلاء بأسلحة الجدل والخطابة، واستعمال بلاغة الكلمة في المرافعات والمناظرات الحجاجية والخطابية. وقد تحولت الفلسفة آنئذ إلى فن الجدل بامتياز، واتخذت وسيلة لكسب الأرباح المادية، سيما أن أغلب المتعلمين من طبقة الأغنياء. ونذكر من الفلاسفة السفسطائيين جورجياس وكاليكيس وبروتاغوراس...

2- سورة الكهف، الآية 18، القرآن الكريم.

ويعد سقراط أب الفلاسفة اليونانيين، وقد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض. ويعني هذا أن الحكماء الطبيعيين قد ناقشوا كثيرا قضايا تتعلق بالكون وأصل الوجود وعلته الحقيقية التي كانت وراء انبثاق هذا العالم وهذا الوجود الكوني. وعندما ظهر سقراط غير مجرى الفلسفة، فحصرها في أمور الأرض وقضايا الإنسان والذات البشرية، فاهتم بالأخلاق والسياسة . وقد ثار ضد السفسطائيين الذين زرعوا الشك والظن، ودافع عن الفلسفة باعتبارها المسلك العلمي الصحيح للوصول إلى الحقيقة، معتمدا في ذلك على العقل والجدل التوليدي والبرهان المنطقي. والهدف من الفلسفة لديه هو تحقيق الحكمة العقلية، وخدمة الحقيقة لذاتها، وليس الهدف وسيلة أو معيارا خارجيا كما عند السفسطائيين الذين ربطوا الفلسفة بالمكاسب المادية والمنافع الذاتية والعملية. وكان سقراط ينظر إلى الحقيقة في ذات الإنسان، وليس في العالم الخارجي، وما على الإنسان إلا أن يتأمل ذاته ليدرك الحقيقة . لذلك، قال قولته المأثورة: « **أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك.** »

وبعد سقراط، جاء أفلاطون ليقدم تصورا فلسفيا عقلانيا مجردا؛ إذ أعطى الأولوية للفكر والعقل والمثال، بينما لا وجود للمحسوس في فلسفته المفارقة لكل ماهو نسبي وغير حقيقي. ولأفلاطون- كما هو معروف- نسق فلسفي متكامل، يضم تصورات متماسكة حول الوجود والمعرفة والقيم.

هذا، وقد قسم أفلاطون العالم الأنطولوجي إلى قسمين: العالم المثالي والعالم المادي، فالعالم المادي هو عالم متغير ونسبي ومحسوس. وقد استشهد أفلاطون بأسطورة الكهف ليبين بأن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو عالم غير حقيقي، وأن العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فوقه الخير الأسمى الذي يمكن إدراكه عن طريق التأمل العقلي والتفلسف. فالطاولة التي نعرفها في عالمنا المحسوس غير

حقيقية. أما الطاولة الحقيقية، فتوجد في العالم المثالي. و توجد المعرفة الحقيقية أيضا في عالم المثل الذي يحتوي على حقائق مطلقة ويقينية وكلية. أما معرفة العالم المادي، فهي نسبية تقريبية وجزئية وسطحية، و تدرك المعرفة في عالم المثل عن طريق التفلسف العقلاني. ومن هنا، فالمعرفة - حسب أفلاطون- تذكر، والجهل نسيان. ويعني هذا أننا كلما ابتعدنا عن العالم المثالي إلا وأصابنا الجهل. لذا، فالمعرفة الحقيقية أساسها إدراك عالم المثل، وتمثل مبادئه المطلقة الكونية التي تتعالى عن الزمان والمكان. ومن ثم، فأصل المعرفة هو العقل، وليس التجربة أو الواقع المادي الحسي الذي يحاكي عالم المثال محاكاة مشوهة.

وعلى مستوى الأكسيولوجيا أو الأخلاق، فجميع القيم الأخلاقية من خير وجمال وعدالة نسبية في عالمنا المادي، ومطلقة حقيقية في عالم المثل المطلق والأزلي.

وهكذا، يتبين لنا بأن فلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادة والحس، تعتبر عالم المثل العالم الأصل، بينما العالم المادي هو عالم زائف ومشوه وغير حقيقي. وقد تجاوز أفلاطون المعطى النظري الفلسفي المجرد ليقدم لنا تصورات فلسفية واجتماعية وسياسية في كتابه(**جمهورية أفلاطون**). ويلاحظ أيضا أن التصور الأفلاطوني يقوم على عدة ثنائيات: العالم المادي مقابل العالم المثالي، وانشطار الإنسان إلى روح من أصل سماوي وجسد من جوهر مادي، وانقسام المعرفة إلى معرفة ظنية محسوسة مقابل معرفة يقينية مطلقة. وعلى المستوى الاجتماعي، أثبت أفلاطون أن هناك عامة الناس الذين يعدون سجناء الحواس الظنية، والفلاسفة الذين ينتمون إلى العالم المثالي؛ لكونهم يتجردون من كل قيود الحس والظن وعالم الممارسة.

وإذا كان أفلاطون فيلسوفا عقلانيا برهانيا، إلا أنه قد وظف الجدل التوليدي، مثل أستاذه سقراط، كما يظهر ذلك جليا في مجموعة من

محاوراته الفلسفية، مثل: محاورة جورجياس ومحاورة فيدر... وكان الجدل عنده هو المنهج الذي به تتجرد النفس من المحسوس، وترتفع إلى المعقول دون استخدام المحسوس، وإنما يتم من خلال الانتقال من فكرة إلى فكرة بواسطة فكرة. وتنقسم الجدلية عنده إلى نوعين: جدلية صاعدة من العالم المحسوس إلى الخير الأسمى، وجدلية هابطة من الخير الأسمى إلى العالم المحسوس. ومن ثم، فالجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب.

هذا، وقد عرفت الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى الجدل الفكري أو المقياس الجدلي خصوصا مع علماء الكلام والفلاسفة ، إذ تناول علماء الكلام ، بعد نشوب الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وظهور مجموعة من الفرق الكلامية كالمرجئة والشيعة والخوارج والمعتزلة والماتريدية والأشاعرة، مجموعة من القضايا المتعلقة بحقائق أصول الدين والعقيدة، كالتوحيد (رؤية الله- كلام الله- صفات الله)، والعدل (نظرية الصلاح والأصلح- نظرية الحسن والقبيح...)، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا، فقد اختار علماء الكلام منهج الجدل والمناظرة من أجل الدفاع عن هذه الحقائق الدينية، وإبداء وجهة النظر في المسائل الدينية والسياسية العويصة التي فرضها الواقع السياسي، وذلك في علاقة بفقه النص وفقه الواقع . وفي هذا الصدد، يعرف ابن خلدون علم الكلام بأنه «العلم الذى يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة.»[3]

3 – ابن خلدون :*تاريخ ابن خلدون*، الجزء الأول، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ص: 485.

ومن المعروف أن الجدل والمناظرة يخضعان نظريا لمجموعة من الثوابت المنهجية، مثل: وجود المدعي والمدعى عليه، ووجود دعوى الاعتراض، والارتكان إلى الدليل (البينة، والشاهد، والبرهان، والوثيقة، والحجة...)، واستعمال العقل والمنطق في التناظر، والابتعاد عن التعصب والعنف والتجريح والقذف ، واستعمال الحوار البناء القائم على الموعظة والحكمة الحسنة، واستقصاد الحقيقة الهادفة، وعدم الوقوع في التناقض، والانطلاق من المسلمات والبدهيات بغية الحجاج والتأثير والإقناع....

ويلاحظ أن أهم الفرق الكلامية التي كان لها باع كبير في عملية الحجاج، نذكر منها: المعتزلة والأشاعرة، فالفرقة الأولى كانت عقلانية تعطي الأولوية للعقل قبل ورود النص، فترى العقل السبيل الوحيد لمعرفة الصواب من الخطإ، والتمييز بين الخير والشر، والتفريق بين الحسن والقبيح. وقد دافعت عن حرية الإنسان في خلق أفعاله على غرار القدرية (معبد بن خالد الجهني وغيلان الدمشقي)، ضد الجبرية (جهم بن صفوان ت.128هـ)، التي كانت تقول بأن الإنسان مجبر على أداء أفعاله خيرا وشرا. وقد قالت المعتزلة كذلك بنظرية الصلاح والأصلح. في حين، كانت فرقة الأشاعرة (نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ت.324هـ) نصية، تعطي الأولوية للنص على حساب العقل، وقد قالت بنظرية الكسب على مستوى أفعال الإنسان. ويعني هذا أن الإنسان ليس حرا حرية مطلقة، وليس مجبرا جبرية مطلقة . بمعنى أن الإنسان يكسب ما يشاء من أفعال الخير والشر التي خلقها الله، فيستعملها بإرادته ومشيئته كما يريد ثوابا وعقابا. بمعنى أن الله الذي خلق الإنسان يخلق فيه نوعا من القدرة والاستطاعة يحسه الإنسان أثناء الفعل ومعه. هذا النوع من القدرة والاستطاعة يسميه أبو الحسن الأشعري كسبا. أي: إن الإنسان يكسب القدرة على الفعل حين القيام به، ولكن لايستطيع الكسب إلا بقدرة من الله.

وإذا كان علماء الكلام يستعملون الجدل والعقل والمنطق والبرهان في الدفاع عن الحقائق الدينية والسياسية، ويستعملون التأويل في قلب الظاهر، واستكشاف الباطن، و تحويل الحقيقة إلى المجاز درءا لكل تشبيه وتجسيد وتشخيص، وإبعادا لقياس الغائب على الشاهد، فإن ثمة انتقادات توجه إلى علم الكلام فيما يخص المنهج والتأويل. فابن رشد – مثلا- يرى أن منهج علماء الكلام منهج افتراضي قائم على الجدل والاحتمال، ينطلق من مقدمات افتراضية، ويصل إلى نتائج افتراضية. ويشبه هذا المنهج منهج الشكاك من السفسطائيين الذين كانوا ينطلقون من نتائج خاطئة، ويصلون إلى نتائج خاطئة. في حين، إن منهج الفلاسفة منهج برهاني ينطلق من نتائج يقينية ليصل إلى نتائج يقينية. أما منهج الفقهاء والجمهور من عامة الناس، فمنهجهم ظاهري وخطابي. وفي هذا النطاق، يقول ابن رشد: « وقد يعرض للنظار في الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض في التصديق، أعني إذا كان دليل التأويل أتم إقناعا من دليل الظاهر، وأمثال هذه التأويلات هي جمهورية، ويمكن أن تكون فرض من بلغت قواهم النظرية إلى القوة الجدلية، وفي هذا الجنس يدخل بعض تأويلات الأشعرية، والمعتزلة، وإن كانت المعتزلة ، في الأكثر، أوثق أقوالا.

وأما الجمهور ، الذين لايقدرون على أكثر من الأقاويل الخطابية، ففرضهم إمرارها على ظاهرها، ولايجوز أن يعلموا ذلك التأويل أصلا.

فإذاً، الناس في الشريعة على ثلاث أصناف:

صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون، الذين هم الجمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق.

وصنف هو من أهل التأويل الجدلي، وهؤلاء هم الجدليون، بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة.

وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون، بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة.»[4]

هذا، وقد عاب ابن رشد على الفرق الكلامية تصريحها بتأويلاتها الجدلية، فكانت وراء اندلاع فتن كثيرة، وماكان عليها أن تصرح بذلك إلا لأصحاب التأويل وأهل العلم والنظر والعارفين بالله، وماكان عليها أن تخرج بذلك على أهل الظاهر وعامة الناس، كما فعل الحلاج المتصوف الذي خرج على الناس قائلا: «أنا الله». فماكان من الفقهاء وعامة الناس إلا أن صلبوه عقابا له على كفره وزندقته. وفي هذا السياق، يقول ابن رشد: «ومن قبل التأويلات، والظن بأنها يجب أن يصرح بها في الشرع للجميع، نشأت فرق الإسلام، حتى كفر بعضهم بعضا، وبدع بعضهم بعضا، وبخاصة الفاسدة منها.

فأولت المعتزلة آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، وصرحوا بتأويلهم للجمهور، وكذلك فعلت الأشعرية، وإن كانت أقل تأويلا. فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شنآن وتباغض وحروب، ومزقوا الشرع، وفرقوا الناس كل التفريق.

وزائدا إلى هذا كله أن طرقهم التي سلكوها في إثبات تأويلاتهم ليسوا فيها لا مع الجمهور ولا مع الخواص، أما مع الجمهور فلكونها أغمض من الطرق المشتركة للأكثر، وأما مع الخواص فلكونها إذا تؤملت وجدت ناقصة عن شرائط البرهان. وذلك يقف عليه، بأدنى تأمل، من عرف شرائط البرهان.

---

4 – ابن رشد: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة 1999م، ص:57-58.

بل كثير من الأصول التي بنت عليها الأشعرية معارفها هي سوفسطائية، فإنها تجحد كثيرا من الضروريات، مثل: ثبوت الأعراض، وتأثير الأشياء بعضها في بعض، ووجود الأسباب الضرورية للمسببات، والصور الجوهرية، والوسائط، ولقد بلغ تعدي نظارهم، في هذا المعنى، على المسلمين، أن فرقة من الأشعرية كفرت من ليس يعرف وجود الباري سبحانه بالطرق التي وضعوها لمعرفته في كتبهم، وهم الكافرون والضالون بالحقيقة.

ومن هنا، اختلفوا، فقال قوم: أول الواجبات النظر. وقال قوم: الإيمان، أعني من قبل أنهم لم يعرفوا أي الطرق هي الطرق المشتركة للجميع، التي دعا الشرع من أبوابها جميع الناس، وظنوا أن ذلك طريق واحد، فأخطأوا مقصد الشارع، وضلوا وأضلوا.»[5]

وعليه، فقد تسلح علماء الكلام بالجدل والمناظرة من أجل الدفاع عن الحقيقة الربانية، وتنزيه الذات الإلهية من كل نقص أو عجز أو تجسيد بشري. ولو أخذ المسلمون بمنهج المعتزلة في إدراك الحقائق، بدلا من اتباع المنهج الأشعري، فاستخدموا العقل والبرهان، ثم دافعوا عن حرية الإنسان في الخلق والتصرف والاستكشاف والابتكار، لكانوا في مكانة أحسن من مكانتهم الاتكالية التي أصبحوا عليها الآن!

ومن جهة أخرى، يذهب الفلاسفة المسلمون بما فيهم: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن طفيل، وابن باجة، وابن رشد... إلى أن الحقيقة هي الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الإنسان الفيلسوف، وهي أس الكمال والسعادة والفضيلة. وبالتالي، لا تتحقق هذه الحقيقة إلا عن طريق استخدام العقل والبرهان والنظر المنطقي. لكن هؤلاء الفلاسفة كانوا يعترفون بأن ثمة حقيقتين: الحقيقة الفلسفية والحقيقة الشرعية.

---

5 – ابن رشد: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، ص:63-64.

ومن ثم، تحيل هاتان الحقيقتان على مستوى التفسير الانعكاسي على الصراع الجدلي الذي احتدم في الواقع العربي الإسلامي بين الفقهاء والفلاسفة، وخاصة في العصر العباسي. إذ يحاول الفلاسفة الدفاع عن الفلسفة بصفة عامة، والفلسفة اليونانية بصفة خاصة، باحثين عن الشرعية النصية والقانونية والفقهية والواقعية التي تسمح لهم بممارسة فعل التفلسف، والاشتغال بفعل التمنطق. لكن هؤلاء الفلاسفة وجدوا معارضة كبيرة من قبل الفقهاء الذين كانوا ينطلقون من الظاهر النصي محاربين الفلسفة جملة وتفصيلا، ثم يربطونها بالكفر والزندقة، قائلين: من تمنطق تزندق. والدليل على ذلك ما فعلوه مع ابن رشد في الأندلس، حينما أحرقوا كتبه الفلسفية والمنطقية إبان الدولة الموحدية. لذلك، اضطر الفلاسفة الملسمون إلى عملية التوفيق بين الفلسفة والشريعة من أجل إثبات حقيقة أساسية، ألا وهي: أن الحق لايضاد الحق.

وإذا كان علماء الكلام قد وظفوا الجدل الحجاجي ، فإن الفلاسفة قد اختاروا الحجاج البرهاني والمنطقي الذي وضع أسسه أرسطو في كتابه عن المنطق، وسماه بـ (أورغانون / Organon).

وإذا كان الفقهاء يعتمدون على ظاهر النص في الوصول إلى الحقيقة الربانية، وعلماء الكلام يستندون إلى الجدل الافتراضي، والفلاسفة يعتمدون على العقل والمنطق أو البرهان الاستدلالي، فإن المتصوفة يعتمدون على الذوق والحدس والوجدان والقلب في إدراك هذه الحقيقة السرمدية. أي: إن لغتهم لغة باطنية تنفي الوساطة، وترفض الحسية، وتتجاوز نطاق الحس والعقل إلى ماهو غيبي وجداني وذوقي. وهنا، يمكن الحديث عن معرفة لدنية ذوقية وجدانية وروحانية.

وإذا انتقلنا إلى الثقافة الغربية المعاصرة، فمازال الحجاج الجدلي حاضرا في الخطابات السياسية والإعلامية والصحفية والفلسفية والمناظرات والسجالات الحوارية العادية أو الراقية. وهنا، يمكن الإشارة

على سبيل المثال إلى الاتجاه الجدلي التداولي مع دوغلاس والتون (Douglas Walton)[6]. ويعنى هذا الاتجاه بدراسة الحجة أو الدليل في بعديه المنطقي والسياقي، واستكشاف القواعد التي تتحكم في الدليل الحجاجي داخل حوار ما. بمعنى أن هذه المقاربة تهتم باستخلاص القواعد والمعايير التي يستند إليها الدليل الحجاجي. ويعرف دوغلاس الجدلية التداولية بأنها التي تدرس الدليل الحجاجي داخل سياق حواري ما لمعرفة طرائق الاستدلال والبرهنة العقلية . ويقصد بالتداولي وجود تواصل وجدل بين الأطراف المتحاورة تتحدث فيما بينها مستخدمة الأدلة الحجاجية، ويتم كل هذا بطبيعة الحال داخل سياق خطابي، حيث تختبر الأدلة الحجاجية في علاقة مع تطورها داخل سياق خطابي ما، وتحلل كذلك في سياقات حوارية حقيقية مأخوذة من الحياة العادية.

ومن المؤثرات التي تحكمت في هذه النظرية تصورات كل من بول لورينزن (Paul Lorenzen)، وإريك كراب (Eric Krabbe)[7]، وجاكو هينتيكا (Jaakko Hintikka)[8]، وودس (Woods)[9] وآخرين...

إذاً، تسعى الجدلية التداولية إلى فهم الأدلة الحجاجية وتحليلها ونقدها، وفرز الدليل الصائب من الدليل الضعيف، أو تبيان الدليل القوي من الدليل الضعيف، و تصنيف الحوارات، ورصد الديناميكية الجدلية، والتوقف عند الحوار النقدي. ويرتبط الدليل الحجاجي بتحقيق هدف ما. أي: ينطلق من أساس ما (المحتوى أو المعطى)، ويصل إلى هدف ما(تقديم حل ما)، والهدف بطبيعة الحال هو إقناع

---

6 -Douglas Walton, *Plausible Argument in Everyday Conversation*, SUNY Press, 1992, p.177.

7- Krabbe, Erik C. et J. A. van Laar: (About Old and New Dialectic: Dialogues, Fallacies, and Strategies). Informai Logic, vol. 27, n° 1, 2007, p.27-58.

8 -Hintikka, Jaako: (Is Logic the Key to All Good Reasoning?). *Argumentation*, vol. 15, n° 1, 2001, p.35-57.

9- Woods J.et D.N.Walton: *Critique de l'argumentation:Logiques des sophismes ordinaires*. Paris: Kimé, 1992, 233 pages.

السامع. ويتجلى الدليل الحجاجي واضحا في الحوار الذي تشارك فيه مجموعة من الأطراف. ومن أهم هذه الحوارات نذكر: الإقناع (المحادثة النقدية)، والحوار، والتفاوض، والتحقيق، والمداولة، والبحث عن المعلومة...

وبناء على ما سبق، تدعو الجدلية التداولية إلى وضع برنامج لدراسة الحجاج الذي يظهر بشكل واضح في نقد الحجج التي تتضمنها الحوارات اليومية والواقعية. فهي تساعدنا على فهم الأدوات المستعملة في بناء الحوار الجدلي بالتركيز على السياق، وتحديد مراحل الحوار وخططه الإستراتيجية. وهنا، يقترب الجدل التداولي من الحجاج بمفهومه العام والخاص. بمعنى أن الجدل هنا لا يقتصر على ما هو حواري فقط، بل يبحث عن الطابع المقاصدي في هذا الحوار باستكشاف التأثير والإقناع.

وخلاصة القول، ترتبط الجدلية التداولية - كما قلنا سالفا- بدوغلاس واطسون[10]، وهي جدلية نقدية جديدة منقحة، تضع مجموعة من المعايير لتقويم الحجج الموجودة داخل حوار ما في سياق خطابي معين. أي: تقوم بنقد الحجج والأدلة المستعملة في الحوارات الحجاجية الإقناعية. وتهدف هذه المقاربة إلى وضع تيبولوجية أو تصنيف للحوارات التي يعد فيها الحوار الإقناعي أهم هذه الحوارات لطابعها الحجاجي. وتتم دراسة هذا الحجاج في الحوارات العادية الجارية بين المتحدثين في الواقع اليومي. ومن ثم، يتمثل طابع التداولي في وجود أطراف تواصلية متعددة، يتم بينها الحوار أو الجدل بطرح الأفكار ومناقشتها. ويحلل الدليل الحجاجي من خلال ربطه بوظيفته النهائية التي تكمن في تحقيق الهدف، ومدى مساهمته في تعزيز الحوار

10 -Douglas Walton: *The New Dialectic: Conversational Contexts of Argument*. Toronto: University of Toronto Press, 1998, 304 pages.

وتعضيده جدليا، بغية الوصول إلى اختيار الدليل الصائب أو الأقوى في سلم الحجاجية.

النظرية الكلاسيكية للحجاج البلاغي (أرسطو)

يعد أرسطو فيلسوفا موسوعيا شاملا ؛ لأن فلسفته تنفتح على كل ضروب المعرفة والبحث العلمي، فهي تبحث في الطبيعة والميتافيزيقا والنفس وعلم الحياة والسياسة والشعر وفن الخطابة والمسرح. وقد وضع أرسطو المنطق الصوري الذي كان له تأثير كبير على كثير من الفلاسفة إلى أن حل محله المنطق الرمزي مع برتراند راسل ووايتهاد.

ويذهب أرسطو إلى أن العالم الحقيقي هو العالم الواقعي المادي. أما العالم المثالي، فهو غير موجود. وأن الحقيقة لا توجد سوى في العالم الذي نعيش فيه خاصة في الجواهر التي تدرك عقلانيا. ولا توجد الحقيقة في الأعراض التي تتغير بتغير الأشكال. أي: إن الحقيقي هو الثابت المادي. أما غير الحقيقي، فهو المتغير المتبدل. ولقد أعطى أرسطو الأولوية لما هو واقعي ومادي على ماهو عقلي وفكري. ومن هنا، عد أرسطو فيلسوفا ماديا اكتشف العلل الأربع: العلة الفاعلة، والعلة الغائية، والعلة الصورية الشكلية، والعلة المادية. فإذا أخذنا الطاولة - مثالا- لهذه العلل الأربع ، فالنجار يحيل على العلة الفاعلة والصانعة، أما الخشب فيشكل ماهية الطاولة وعلتها المادية، أما صورة الطاولة، فهي العلة الصورية الشكلية. في حين، تظهر العلة الغائية في الهدف من استعمال الطاولة التي تسعفنا في الأكل والشرب.

ويعد أرسطو كذلك من الفلاسفة اليونانيين الأوائل الذين نظروا للبلاغة من خلال رؤية حجاجية، فقد خصها بكتابين هامين هما (الريطوريقا/ البلاغة) و(الحجج المشتركة). وقد قسم أرسطو كتابه البلاغة إلى أقسام ثلاثة : القسم الأول يتعلق بمفهوم البلاغة

وموضوعها ومنهاجها وعلاقتها بالجدل. في حين، يتناول القسم الثاني ما يتعلق بالتأثير على الآخر أو نفسيته. أما القسم الأخير من الكتاب، فيتناول صفات الأسلوب وآثاره الفنية والجمالية والحجاجية.[11] أي: يتناول المصنف اللوغوس (اللغة)، والإيتوس (الفضائل الأخلاقية)، والباتوس (الانفعالات والأهواء). وقد فضل أرسطو البلاغة على المنطق؛ لأن البلاغة أكثر فاعلية في المجتمع، وأداة ناجعة في تفعيل الجدل والخوض في المناقشات السياسية والفكرية. في حين، يبقى المنطق حبيس المعرفة العلمية بعيدا عن الحياة السياسية. وقد جعل أرسطو من البلاغة أداة تطبيقية تتخلل المنطق والسياسة والأخلاق. ومن ثم، فالبلاغة هدفها الإقناع والوصول إلى الحق والعدالة عبر الجدل والاستدلال البرهاني والمنطقي. كما تعتمد على التجارب المستمدة من الخارج (الشهود مثلا) أو من داخل البلاغة. وقد اهتم أرسطو بمواضيع الفلسفة كالحق والعدالة والقانون.

وعليه، فقد كانت البلاغة عند أرسطو خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتي التأثير والإقناع ، ويتوجه إلى الجمهور السامع قصد توجيهه أو إقناعه إيجابا أو سلبا. وفي هذا النطاق، يقول أرسطو: «ويحصل الإقناع ، حين يهيأ المستمعون ويستمليهم القول الخطابي، حتى يشعروا بانفعال ما، لأننا لانصدر الأحكام على نحو واحد حسبما نحس باللذة أو الألم، والحب والكراهية... والخطاب هو الذي ينتج الإقناع حينما نستخرج الصحيح والراجح من كل موضوع يحتمل أن يقع فيه الإقناع.

ولما كانت الأدلة تختص بهذه الوسائل كان استعمالها يفترض أولا على وجه ظاهر، الاستعداد للاستدلال القياسي، والمعرفة النظرية

11- انظر: أرسطو: **فن الخطابة**، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2008م.

بطبائع البشر، وثانيا معرفة الأخلاق والفضائل، وثالثا معرفة الانفعالات وذلك بأن نعرف طبيعة كل انفعال وأحواله وأسبابه، والهيئات الراسخة التي يحدث بها كل انفعال عند المستمعين، ويلزم عن ذلك أن البلاغة تكاد تكون فرعا من الجدل وعلم الأخلاق، ويصح أن تسمى السياسة. ولهذا السبب على وجه الضبط، تتخذ البلاغة المظهر السياسي والذين تستمليهم ممارستها، يرونها كذلك، تارة لضعف ثقافتهم، وتارة تدجيلا منهم وشعوذة؛ وتارة أخرى لأسباب إنسانية؛ وكأنها قسم للجدل ونظير له كما وصفنا هذا في مبدإ قولنا. إذ كل واحد منهما ليس هو علما له موضوعه المتمايز حتى تعرف خواص كل واحد منهما، وإذاً كلاهما ليسا إلا قدرات أو ملكات يقتدر بها على تقديم الحجج.»[12]

وتأسيسا على ما سبق، يعد أرسطو المؤسس الحقيقي للبلاغة ومنطق القيم. وقد سبق عصره بآرائه البلاغية الرائدة في مجال الحجاج والإقناع. ويعتبر أرسطو البلاغة فنا خطابيا بامتياز، إذ يستخدم أدوات حجاجية واستدلالية ومنطقية للتأثير في الآخر، وإقناعه ذهنيا ووجدانيا. و يبرز ذلك الحجاج عبر مجموعة من الوسائل الأدائية، فإما أن يتحقق عبر اللوغوس الذي يعني الكلام والحجج والأدلة، ويظهر ذلك جليا في نسق الرسالة التواصلية. وإما يتحقق عبر الإيتوس الذي يتمثل في مجموعة من القيم الأخلاقية والفضائل العليا التي ينبغي أن يتحلى بها الخطيب أو البلاغي المرسل. وإما يتجسد في الباتوس الذي يتعلق بالمخاطب، ويكون في شكل أهواء وانفعالات، أو ما يسمى في الثقافة العربية بثنائية الترغيب والترهيب.

وقد ميز أرسطو كذلك بين ثلاثة خطابات بلاغية: أولا، خطاب قضائي يهدف القضاة من ورائه إلى معرفة الحقيقة بغية تحقيق العدالة.

---

12 - أرسطو: فن الخطابة، ص:16.

والآتي، أنهم يستعملون زمن الماضي والقياس المنطقي. وثانيا، الخطاب الاستشاري الذي يتخذ طابعا سياسيا، وهدفه تحقيق الخير للصالح العام، ويستخدم زمن الحاضر، ويستعين حجاجيا بالأمثلة. ثالثا، الخطاب البرهاني القائم على مدح الآخر أو ذمه، والهدف منه تثبيت الجمال أو الدفاع عن فضيلة أو قيمة أخلاقية عليا ما. ويستعمل هذا الخطاب جميع الأزمنة بما فيها الحاضر والماضي والمستقبل، وكذلك أسلوب المبالغة والتضخيم.

النظريـة الجديدة في الحجاج البلاغي (الأرسطيون الجدد)

تأسست البلاغة الجديدة أو البلاغة الحجاجية منذ 1958م مع رجل القانون الشيكي شايم بيرلمان (Chaïm Perelman) و اللسانية البلجيكية لوسي أولبريخت تيتيكا (Lucie Olbrechts-Tyteca)[13] حين أصدرا معا كتابهما (الوجيز في الحجاج. البلاغة الجديدة)[14]. وقد تبلورت هذه البلاغة أيضا مع ستيفان تولمان (Stephen Toulmin) في كتابه (استعمالات الدليل أو الحجة)[15]، وشارل هامبلان (Charles Hamblin) في كتابه (الأوهام)[16]...

وعليه، فثمة نوعان من الحجاج: حجاج عاد عند البلاغيين الجدد، يستعمل آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية. أي: مجمل الإستراتيجيات

13- Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.

14 - Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : *Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique,* Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles, 2009 .Et *Le Champ de l'argumentation*, Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles, 1969.

15 - S.TOULMIN : *The Uses of Argument* (Cambridge,Cambridge University Press, 1958),Trad., Les Usages de l'argumentation (Paris, PUF, 1992). Voir aussi la dernière version« Updated » en anglais de 2003.

16 - C. L. HAMBLIN: *Fallacies* (London, Methuen, 1970), rééd. (Newport, VA, Vale Press, 1986).

التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع مخاطبه. وفي هذا المجال، لقد ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج ارتباطا وثيقا، فاستعملت تقنيات البلاغة في عملية الإفهام والإقناع، وقد اهتم بها كل من بيرلمان(Perelman) وتيتيكا(Tyteka) في كتابهما(الوجيز في الحجاج: البلاغة الجديدة). وقد ركز بيرلمان كثيرا على مبدأين رئيسين، وهما: القصد والمقام. ويمكن الاستفادة من هذا التصور الحجاجي التقليدي، حيث يساعدنا على «اكتساب خبرة منهاجية دقيقة في تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية ، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين. وعلى الرغم من مميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية . بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضاه كل الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة . »[17]

والغرض من الحجاج – كما هو معروف- هو الإقناع والتأثير والتداول والتواصل والتخاطب. ومن ثم، فالحجاج فعالية تداولية جدلية دينامنيكية فعالة ، تستلزم وجود أطراف تواصلية بينها قواسم حجاجية مشتركة، إذ يمتلك المرسل الخطيب مؤهلات معرفية وأخلاقية كفائية، ويستعمل في حجاجه اللوغوس الاستدلالي بغية إقناع الآخر، ولو باستعمال خطاب الأهواء والانفعالات. ولا يعتمد الحجاج عند بيرلمان على العنف أو التضليل أو التوهيم، بل غرضه هو بناء الحقيقة عن طريق الحوار البناء والاستدلال الذي قد يكون ذهنيا و هوويا انفعاليا.

17 - د.رضوان الرقبي: (الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله)، *مجلة عالم الفكر*، الكويت، العدد2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011م، ص:85.

هذا، و قد جدد بيرلمان وتيتيكا آراء أرسطو حينما حاولا أن يعيدا إليها طابعها الفلسفي الحقيقي؛ لأن البلاغة الأرسطية تحصر البلاغة في الإقناع، فتعدها خطابا حجاجيا بامتياز. وقد استبعدا تصورات أفلاطون والسوفسطائيين لأنها تقوم على الجدل، والسفسطة، والتشكيك، والمنهج المغالطي، والمناورة الواهمة، واعتماد المثل العليا المطلقة. ويعني هذا أن البلاغة في طابعها العام مرتبطة بالمقصدية الحجاجية، وغالبا ما ترتبط الحجاجية بالسلطة والإيديولوجيا والامتيازات الاجتماعية. وأكثر من هذا، فقد ارتبطت البلاغة عند أرسطو بالحجاج والخطاب الإقناعي. وهذا الاقتران أو الترادف نجده أيضا لدى بيرلمان (Perelman) وألبريخت تتيكا(Olbrechts-Tyteca).

ومن هنا، فالمقصود بالبلاغة الجديدة تلك البلاغة الحجاجية التي تتعارض مع بلاغة الصور الفنية والمحسنات البديعية. ويمكن اعتبارها أيضا بلاغة أرسطية جديدة، مادام بيرلمان وتيتيكا قد اشتغلا على القضايا الحجاجية نفسها، لكن في ضوء رؤية جديدة.

هذا، وقد ارتبطت أفكار بيرلمان بالقانون والفلسفة والحجاج والبلاغة، وانتشرت أفكاره الحجاجية في السبعينيات من القرن الماضي، وانتشرت في فرنسا في سنوات التسعين. وقد وضع بيرلمان لبنات الخطاب الحجاجي نظرية وتطبيقا، والهدف من نظريته هو محاولة فهم الكيفية التي يتم بها إصدار أحكام القيمة. ومن ثم، فالحجاج ودوره البلاغي هو أساس نظريته الجديدة. كما تتأسس نظريته على قراءة النصوص قراءة بلاغية على أساس الحوار لا على أساس الظن والتخمين والوهم. وقد انتعشت نظريته في الجامعة الحرة ببروكسيل أو في مدرسة بروكسيل مع لوسي تتيكا، وأيضا مع الفيلسوف ميشيل مايير(Michel Meyer) الذي يعرف الحجاج بأنه تفاوض بين شركاء الحوار أو التواصل عن مسافة.

هذا، وتنبني النظرية الحجاجية عند بيرلمان على دراسة آليات الخطاب الاجتماعي العام، ورصد فعاليته السياسية والاقتصادية والإعلانية ، والتركيز على الجدل القانوني (القضائي) أو الفلسفي على سبيل التمثيل، ومعالجة الأسئلة التطبيقية ، سواء أكان ذلك في القانون أم الفلسفة أم السياسة، وهي أسئلة تتعلق بحياة الإنسان وأفعاله. ومن ثم، تحاول البلاغة تقديم برهنة عقلية لحل تلك الأسئلة من خلال تمثل المنهجية الحجاجية الأرسطية في مناقشة الأسئلة التطبيقية التي تطرح مجموعة من الأجوبة التي تستلزم اتخاذ قرار في حقها باختيار أحسن جواب. ولقد أصبحت البلاغة مع الأرسطيين الجدد أداة إجرائية مهمة في حقل الفلسفة، بعد أن كانت مقصية ومهمشة ومرفوضة في هذا المضمار المعرفي.

ومن هنا، فمهمة النظرية عند بيرلمان هو استعراض الأطروحات المتناقضة والمتعارضة ذهنيا، واستجلاء منطلقاتها المنطقية والاستدلالية لمعرفة طابعها الإقناعي. أي: اختيار الحجج المقنعة والمناسبة في موقف معين. وقد حاول بيرلمان قراءة مجموعة من النصوص السياسية والفلسفية والأدبية والقضائية بحثا عن الإقناعي والحجاجي وآليات الحجاج وتمظهرات الخطاب الحجاجي.أي : البحث عن مختلف الوسائل الحجاجية التي تتضمنها النصوص المتنوعة في علاقتها ببنياتها الخطابية.

كما حاول بيرلمان مع فلاسفة القانون تجديد الخطاب القضائي في ضوء رؤية بلاغية حجاجية جديدة. وإذا كانت البلاغة القديمة قد انصبت على دراسة مرافعات المحامين حجاجيا، فإن بيرلمان قد ركز على خطاب القضاة الذين يكونون أمام مجموعة من الآراء المتناقضة والمتعارضة من ناحية، وأمام مجموعة من الاقتراحات والحلول الممكنة من ناحية أخرى. ومن ثم، فالقضاء أو القانون هو في الحقيقة حل

للصراعات الجدلية المتناقضة. وبهذا، يربط بيرلمان القانون والخطاب القضائي بالبلاغة الحجاجية في مختلف درجاتها الاستدلالية.

ومن أهم أفكار بيرلمان أنه يعتبر الإقناع الوظيفة الأساسية للبلاغة وليس التأثير. وفي هذا السياق، يقول بيرلمان : « نقصد بالحجاج المؤثر ذلك المتوجه إلى مستمع خاص، وبالإقناعي المصوب نحو كائن عاقل. فالفرق دقيق، ورهين بمفهوم الخطيب للعقل أساسا» .[18]

ومن أفكاره الأخرى أن الصور البلاغية ليست صورا فنية وجمالية وتزيينية وظيفتها الإمتاع فقط كما هو السائد في البلاغة التقليدية، بل هي من طبيعة حجاجية وإقناعية بامتياز. ويترتب على هذا أن الاستعارة حجاجية وإقناعية ليس إلا. وفي هذا الإطار، يقول بيرلمان: « تعتبر الصورة حجاجية ذات منظور مغاير؛ إذا بدا استعمالها مألوفا بالنسبة لوضعها الجديد المفترض.أما إذا لم يهدف الخطاب إلى استجلاب موافقة المستمع لهذه الصيغة الحجاجية، فإن الصورة ستصبح محسنا بديعيا ، لاتعدو أن تغدو مبعث إعجاب أو مصدر استحسان الخطيب» .[19]

وأكثر من هذا، فقد تصبح الصور البلاغية والمحسنات البديعية من التقنيات الحجاجية التي تستخدم في الخطاب الحجاجي لإقناع الغير أو لاستجلاب موافقته ورضاه.

هذا، ويعد الحجاج عملية تفاعلية تقوم على مجموعة من العناصر هي : المرسل والرسالة والسامع . و يعد الغير السامع أهم من المتكلم الخطيب؛ لأن الهدف من الرسالة التواصلية هو إقناع الآخر ومحاجته برهانيا وعقلانيا عبر مجموعة من المسارات الحجاجية للوصول إلى الحقيقة والحل الراجح، واستكشاف ردود فعل المخاطب تجاه الحجاج.

18 - Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : op.cit, p. 36.
19 - Ibid,p.229.

فليس المهم – هنا– هو الخطيب أو المرسل كما في البلاغة التقليدية، بل هو المستمع أو المخاطب ؛ « لأن الأهم في الحجاج ليس ما يعتبره الخطيب حقيقيا ومقنعا، وإن العبرة بالتقويم الصادر عن مخاطبيه»[20].

ويعرف بيرلمان السامع المخاطب بأنه«المجموع الذي يحاول الخطيب التأثير فيه عبر حجاجه»[21]. ويعني هذا أن الغرض من توظيف اللوغوس الحجاجي هو إقناع الغير أو دفعه للتسليم أو الرضا عن الحجة. وفي هذا الإطار، يقول بيرلمان: «نتكلم بقصد دفع المخاطب إلى القيام بمناورات أو تمثلات مختلفة متعلقة بموضوع معين، لكسب أو مضاعفة تعاطف المستمع بشأن الأطروحات المقترحة للحصول على موافقته»[22].

وبناء على ما سبق، قد يكون هذا الغير المخاطب فردا أو جماعة، حاضرا أو غائبا، افتراضيا أو محددا، وقد يكون المتلقي شخصا معينا في الواقع ، أو سامعا كونيا مجردا عن الزمان والمكان حسب ثقافة كل عصر على حدة.«إن للتصورات التي يتبناها الناس عبر التاريخ عن بعض الأحداث الموضوعية أو الحقائق الجلية تغيرت بما لم يعد من داع لاتخاذ الحذر حيالها، فبدل الاعتقاد بوجود مجتمع كوني، نظير الروح المقدسة التي لايمكن أن تقبل إلا بالحقيقة . .يمكن ، بالأحرى، تمييز كل خطيب عبر الصورة التي يكونها عن المستمع الكوني. . .إن لكل ثقافة ، وشخص، منظور خاص للمستمع الكوني، ودراسة تغير هذه المنظورات تفيد في تبيان ما اعتبره الناس عبر التاريخ واقعيا وحقيقيا وراجحا» .[23]

بيد أن هذا السامع الكوني المجرد العام لا يكون بهذه الصفة المطلقة إلا في الأدب والترجمة والفلسفة. أما واقعيا وميدانيا، فنحن لا نتعامل إلا مع مستمع حقيقي عاد، سواء أكان حاضرا أم غائبا.

20 - Ibid, p. 31.
21 - Ibid, p. 25.
22 - Ibid, p.5.
23- Ibid, p.43.

فضلا عن ذلك، لابد من مراعاة المقام الحجاجي أو مقتضى الحال، لأن لكل مقام مقالا، ولابد من تكييف الخطاب مع مقامات المخاطبين، والإحاطة بمجموع المعارف الخاصة بموضوع المحاجة المتعاقد عليها ضمنيا أو ما يسمى بقاعدة الحجج المشتركة التي تجمع المرسل الخطيب والسامع المفترض، مع تغيير موجهات الخطاب الحجاجي بتغير أنماط مخاطبيه[24]. وهنا، لابد من الإشارة إلى أن الخطيب مرتبط بالإيتوس الذي يمتلك الكفاءة المعرفية، ويتصف بالفضائل والقيم الأخلاقية النبيلة، ويستعمل اللوغوس اللغوي في رسالته التواصلية في شكل موجهات وتقنيات حجاجية إقناعية. أما السامع فيرتبط بالباتوس أو بثنائية الترغيب والترهيب أو بعالم الأهواء والانفعالات. ويعني كل هذا أن الخطاب الحجاجي يثير المستمع بتوظيف الباتوس أو الأهواء، مع مراعاة الحس المشترك أو القيم الثقافية المشتركة.

ولا يمكن الحديث بحال من الأحوال عن الحجاج إلا حينما نكون أمام تعارض الأطروحات الذهنية، كأن نجد أنفسنا- مثلا- أمام أطروحة ونقيضها، سيما إذا شككنا في صحتها ووجاهتها، فنلتجئ آنئذ إما إلى التثبيت وإما إلى التفنيد. «والنص حجاجي من وجهة نظر البلاغة الجديدة حين يحمل بذرة خلاف، تتضمن قصدا تأثيريا، مضمرا أو معلنا، بنية تحويل أو تعديل وجهة تفكير المخاطب أو حمله على مزيد من موافقة داخل مسار تواصلي غير إلزامي.»[25]

ومن آليات المسار الحجاجي: تقديم الدعوى، ومعارضة الدعوى، والجدل، والقياس، والافتراض، والاستقراء، والاستنباط، والاستنتاج، والتسليم، والتصديق، والتفنيد، والتثبيت، وإزالة

24 – أمينة الدهري: **الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة**، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2010م، ص:139.

25 – أمينة الدهري: **الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة**، ص:143.

التناقض، والإسقاط في الخطإ، ووجود المفارقة واللاانسجام، وإنزال الكلام منزلة تحصيل الحاصل ...وقد يتتبع المحاجج مساره الإقناعي معتمدا فيه على اللوغوس الاستدلالي والمنطقي، أو يستند إلى الخطاب القيمي وأمهات الفضائل، أو يوظف معجما هوويا وانفعاليا.

وهنا، يجب التنبيه إلى أن النظريات التقليدية كانت عقلانية وموضوعية على مستوى الحجاج، ولم تول الذات اهتمامها، ولم تعن بخطاب الأهواء. لذا، «خصت النظريات الحجاجية المعاصرة، تدريجيا، الجانب الانفعالي من التفاعل الحجاجي بدراسات تعيد الاعتبار لإجرائيته في العملية الحجاجية، بعدما كانت تعتبر الاستدلال العقلي وحده الكفيل بالتأثير على المستمع، لأنه يفيض عن تأمل وتفكر في القضية المختلف حولها، ويبرر المواقف المتخذة بما لايدع مجالا للارتياب في صحتها. وهو ما لاتفي به – في نظرها- الأهواء، باعتبارها استدلالات زائفة منحدرة من الانفعال ومتوجهة إليه، بفعل إثارتها لأحاسيس قد تحرف مسار الحقيقة المبحوث عنها . وقد عرف هذا المنظور منعطفا وتحولا، يستدرك عدم نفي الاستدلالين العقلي والانفعالي لبعضهما البعض، لاسيما إذا تم ربط هذا الأخير بشرطي نوع الخطاب ومقصد الكاتب.»[26]

وفي الأخير، خلف بيرلمان مجموعة من التلاميذ والأتباع، مثل: بيلمان بينوا فريدمان (Benoît Frydman)، ومارك أنجنو(Marc Angenot)، وكريستيان بلانتان(Christian Plantin)، وهنريش لوسبيرغ(Heinrich Lausberg)...

26- أمينة الدهري: نفسه، ص:74.

نظريـة الحجـاج اللغـوي

تهدف نظرية الحجاج اللغوي أو اللساني (l'argumentation dans la langue) التي وضعها كل من أنسكومبر ANSCOMBRE J.C و أزوالد ديكرو(O.Ducrot)[27] إلى دراسة الجوانب الحجاجية في اللغة، ووصفها انطلاقا من فرضية محورية ألا وهي «أننا نتكلم عامة بقصد التأثير».أي: تحمل اللغة في طياتها بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية تتجلى في بنية الأقوال ذاتها، صوتيا، وصرفيا، وتركيبيا، ودلاليا.ومن ثم، «تنتمي دراسة الحجاج إلى البحوث التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة.أي: القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنام وتدريجي. وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب.»[28]

وعليه، تندرج نظرية الحجاج اللغوي ضمن النظريات الدلالية الحديثة التي تقدم تصورات جديدة حول المعنى، وتقترح مقترحات جادة حول كثير من القضايا والظواهر اللغوية، وتتجاوز مجموعة من المشاكل المنطقية الكلاسيكية، خاصة المشاكل المرتبطة بالدور التفسيري لمفهوم الصدق(vérité)[29]. وينضاف إلى ذلك، أن وظيفة اللغة الأساسية ليست هي الوظيفة التواصلية الإخبارية، بل هي الوظيفة الحجاجية. ويعني هذا أن الوظيفة التواصلية وظيفة ثانوية ليس إلا.

هذا، وتتعارض النظرية الحجاجية اللغوية مع مجموعة من النظريات الحجاجية الكلاسيكية مثل التي تنتمي إلى البلاغة الكلاسيكية كما عند أرسطو، أو التي تنتمي إلى البلاغة الحديثة كما

27- ANSCOMBRE J.C., DUCROT.O : *L'argumentation dans la langue*, Bruxelles, Mardaga, 1983.

28 – د.أبوبكر العزاوي: **اللغة والحجاج**، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2006م، ص:8.

29 – د.أبوبكر العزاوي: **اللغة والحجاج**،ص:8 - 9.

عند بيرلمان(Perelman)، وأولبريخت تيتيكا (Tytecaa)، وميشيل مايير(Michel Meyer). . ، أو التي تنتمي إلى المنطق الطبيعي كما عند جان بليز غرايس. . .

ومن ثم، تنطلق هذه النظرية من تصورات أزوالد ديكرو ، كما بينها بشكل جلي في نظريته الحجاجية سنة 1973م. والآتي، أنها نظرية لسانية تعنى بالوسائل اللغوية الحجاجية التي تتضمنها اللغات الطبيعية، مع دراسة الأهداف الحجاجية ، ورصد تأثيرها التداولي على المستمع . ويعني هذا أن الأقوال اللغوية تحمل في جوهرها مؤشرات لسانية ذاتية تدل على طابعها الحجاجي، دون أن يكون ذلك متعلقا بالسياق التداولي الخارجي. وإذا قلنا: المغاربة أفارقة، زيد مغربي، إذاً، زيد أفريقي، فهذا برهان أو قياس منطقي حتمي وضروري.أما إذا قلنا: انخفضت درجة البرودة، إذاً، سيمرض زيد. فهذا حجاج أو استدلال طبيعي غير برهاني يحمل استنتاجا احتماليا.ويعني هذا أن اللغة الإنسانية لغة حجاجية ومنطقية من داخل بنيتها اللغوية الداخلية. وقد استفاد دوكرو من نظرية أفعال الكلام كما عند سورل وأوستين وغرايس. وأضاف دوكرو فعلين: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج. وينضاف إلى هذا، أن الحجاج يتميز عن البرهان أو الاستدلال المنطقي بكونه يتأسس على بنية الأقوال اللغوية و تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب.

وإليكم هذه الأمثلة:

- **«أنت مرهق، إذا، فأنت في حاجة إلى الراحة»**.

تتضمن هذه الجملة دلالات حجاجية، فهناك الحجة أو الدليل(أنت مرهق)، والنتيجة(أنت في حاجة إلى الراحة). و الدليل على الطبيعة الحجاجية لهذه الجملة هو وجود الرابط الحجاجي: (إذاً). وقد يكون هذا الرابط مضمرا، وتكون النتيجة أيضا مضمرة بدورها كما في هذه الجملة:

• **«أنت مرهق . أنت في حاجة إلى الراحة».**

وهكذا، يتبين لنا بأن الحجج اللغوية سياقية تتحدد حجيتها بالسياق اللغوي، فقد تكون العبارة الواحدة إما حجة وإما نتيجة. ومن جهة ثانية، تكون الحجج اللغوية نسبية مادامت هناك حجج مضادة محتملة من المستمع . وهنا، يمكن القول بأن هناك حججا قوية، وحججا ضعيفة، وحججا أوهى، وحججا أضعف...كما تكون هذه الحجج قابلة للإبطال. ويعني هذا أن الحجاج اللغوي«نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي».[30]

وتسمى العلاقة التي تجمع بين الحجة والنتيجة العلاقة الحجاجية، وهي تختلف جذريا عن الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي. ويمكن الحديث أيضا عن السلم الحجاجي الذي يتكون من فئة حجاجية موجهة، ويتكون من مجموعة من الدرجات في القوة والضعف.

وللتمثيل، نقول:

1 - حصل علي على دكتوراه الدولة

2 - حصل علي على الإجازة.

3 - حصل علي على البكالوريا.

يلاحظ أن هذه الجمل الحجاجية تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها، وإلى السلم الحجاجي نفسه، وتؤشر على نتيجة مضمرة ، تتمثل في كفاءة علي، وتثبيت مكانته العلمية المتميزة. بيد أن الدليل القوي على مكانته العلمية وكفاءته المعرفية يدل عليه الدليل القوي ألا وهو الحصول على الدكتوراه. ومن ثم، ينبني السلم الحجاجي على قوانين ثلاثة: قانون النفي (ليس علي مجتهدا، إنه لم ينجح في

---

30 - د.أبوبكر العزاوي: نفسه،ص:20.

الامتحان)، وقانون القلب(لم يحصل علي على الدكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير)، وقانون الخفض أو الدونية مثل: (الجو ليس باردا، لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل).

وهناك مفهوم آخر مرتبط بالسلم الحجاجي«هو مفهوم الوجهية أو الاتجاه الحجاجي(L'orientation argumentative). ويعني هذا المفهوم أنه إذا كان قول ما يمكن إنشاء فعل حجاجي، فإن القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا، فإذا كان القول أو الخطاب معلما (marqué).أي: مشتملا على بعض الروابط والعوامل الحجاجية، فإن هذه الأدوات والروابط تكون متضمنة لمجموعة من الإشارات والتعليمات التي تتعلق بالطريقة التي يتم بها توجيه القول أو الخطاب. أما في حالة كون القول غير معلم، فإن التعليمات المحددة للاتجاه الحجاجي تستنتج إذاك من الألفاظ والمفردات ، بالإضافة إلى السياق التداولي والخطابي العام»[31].

علاوة على ذلك، تشتمل اللغة العربية على مجموعة من الروابط الحجاجية، مثل: لكن، وبل، وإذاً، وإذن، وحتى، وكي، ولام التعليل، ولاسيما، وإذ، ولأن، وبما أن، ومع ذلك، وربما، وتقريبا، وإنما، وما.... إلا، وإنما، وبيد أن...وتستتبع هذه الروابط علاقات حجاجية قائمة على الحجج والنتائج، وقد تكون هذه الروابط صريحة أو مضمرة حسب السياق التداولي. ومن ثم، يتحدث ديكرو (O.Ducrot) وأنسكومبر (J.C.Anscombre) عن التداوليات المندمجة (La pragmatique intégrée) التي تقرن الحجة بالنتيجة بواسطة الروابط الحجاجية. وهذا ما دفع ديكرو للتفكير في وضع مقاربة حجاجية لسانية تهدف إلى وصف هذه الروابط اللغوية في سياقها التداولي بعيدا عن

31 – د.أبوبكر العزاوي: نفسه، ص:25.

وصفها النحوي التقليدي. كما ينبغي التمييز – حسب دوكرو- بين الروابط الحجاجية (les connecteurs) والعوامل الحجاجية (les opérateurs)، فالروابط الحجاجية هي التي تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصح أو أكثر، وتسند لكل قول دورا حجاجيا محددا حسب السياق التداولي. ومن بين هذه الروابط: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، بما أن، إذ...إلخ. أما العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين حجة وأخرى، بل تقوم بدور حصر الإمكانات الحجاجية وتقييدها داخل ملفوظ حجاجي معين. ومن أدواته «ربما، وتقريبا، وكاد، وقليلا، وكثيرا، وما...إلا، وجل أدوات الحصر والقصر[32].

وعلى العموم، فثمة أنماط عدة من الحجج، مثل: الروابط المدرجة للحجج (حتى، وبل، ولكن، ومع ذلك، ولأن...)، والروابط المدرجة للنتائج، مثل: (إذن، إذاً، وبالتالي...)، والروابط التي تدرج حججا قوية (حتى، بل، لكن، لاسيما..)، والروابط التي تدرج حججا ضعيفة، وروابط التعارض الحجاجي، مثل: (بل، ولكن، ومع ذلك...)، وروابط التساوق الحجاجي، مثل، (حتى، ولاسيما..).

أما المبادىء الحجاجية، فهي بمثابة ضمان للروابط الحجاجية، وتقابل ما يسمى بمسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري والرياضي، ولها خصائص ومميزات وقواعد ومبادئ عدة، منها: أنها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة. كما تتصف بالعمومية.أي : تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة، وتتميز بالتدرج من خلال الانتقال من الحجة إلى النتيجة، والعكس صحيح أيضا، ومبدأ النسبية.أي : قابلية

32 - O. Ducrot :(notes sur l'argumentation et l'acte d'argumenter),_*Cahiers de linguistique française*, Genève, n° : 4,1982 ; (opérateurs argumentatifs et visée argumentative),_*Cahiers de linguistique française*, Genève, no : 5,1983.

الحجة المعروضة للتفنيد والنفي والإبطال بحجة مضادة قوية ، أو تكون الحجة الواردة في الملفوظ قابلة لنفيها، كأن نقول: اجتهد، إذن تنجح، وربما قد تؤدي الحجة إلى نقيضها ألا وهو الفشل. وللتمثيل: (سينجح زيد لأنه مجتهد)، وتترجم المبدأ الحجاجي لهذه الجملة بالشكل التالي: كلما كان زيد مجتهدا، كان يستحق النجاح، أو يؤدي الاجتهاد إلى النجاح، أو تكون فرص نجاح زيد بقدر عمله واجتهاده.وفي هذا الصدد، يقول أبو بكر العزاوي: «المبادئ الحجاجية هي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح، وأن التعب يستدعي الراحة، وأن الصدق والكرم والشجاعة من القيم النبيلة والمحببة لدى الجميع التي تجعل المتصف بها في أعلى المراتب الاجتماعية، والكل يقبل أيضا أن انخفاض ميزان الحرارة يجعل سقوط المطر محتملا، وبعض هذه المبادئ يرتبط بمجال القيم والأخلاق، وبعضها الآخر يرتبط بالطبيعة ومعرفة العالم.

وإذا كانت المبادئ الحجاجية ترتبط بالإيديولوجيات الجماعية، فإنه من الممكن أن ينطلق استدلالان من المقدمات نفسها، ويعتمدا الروابط والعوامل نفسها، ومع ذلك يصلان إلى نتائج مختلفة، بل متضادة. ولم يفسر هذا إلا باعتماد مبادئ حجاجية تنتمي إلى إيديولوجيات متعارضة، لكن إلى جانب هذه المبادئ المحلية(Topoi locaux) المرتبطة بإيدولوجيات الأفراد داخل المجموعة البشرية الواحدة، هناك مبادئ أخرى أعم، وهي مشتركة بين جميع المجموعة اللغوية، ومؤشر لها داخل اللغة.»[33]

ومن المعلوم أن هناك أنواعا عدة من المعاني، سواء أكان المعنى ظاهرا أم باطنا. ومن أنواع المعنى الظاهري: المعنى الحرفي، والمعنى القضوي، والمعنى البنيوي، والمعنى المعجمي، والمعنى الإخباري

33- د. أبو بكر العزاوي: نفسه، ص:33.

الإعلامي....ومن أنواع المعنى الباطني: الاقتصاء، والاستلزام الدلالي، والتضمين، والاستلزام الحواري، والقيمة الحجاجية أو المعنى الحجاجي. وإذا كان العديد من اللغويين والفلاسفة والمناطقة منذ أفلاطون إلى اللسانيات الحديثة يرون أن وظيفة اللغة إخبارية وصفية تصف العالم وتمثله. بمعنى أن اللغة لها وظيفة وصفية تمثيلية، فإن النظرية الحجاجية اللسانية ترى بأن اللغة وظيفتها الأساسية حجاجية ليس إلا، أما باقي الوظائف الأخرى، كالوظيفة التواصلية فهي ثانوية. ومن ثم، تربط النظرية الحجاجية القول بالوظيفة أو المقصدية أو المقام السياقي التداولي. ومن ثم، لا يعتمد تسلسل الأقوال والجمل في الخطاب المعنى الإخباري أو المحتوى الإعلامي، وإنما يعتمد بالأساس على المعنى الحجاجي أو القيمة الحجاجية للقول. ومن هنا، فما يهم النظرية الحجاجية هو دراسة كيفية اشتغال الأقوال داخل خطاب ما.أي: رصد تسلسلها وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية .أي: تدرس منطق الخطاب تواليا وتدرجا. ويعني هذا ربط القول دائما بمقصديته التداولية والسياقية والمقامية. فجملة: (السماء صافية) ليس فيها إخبار تواصلي، بل هناك وظيفة تداولية تتمثل في: لنخرج في نزهة، هناك معنى حجاجي.

وتحوي اللغة العربية مجموعة من الروابط الدالة على الحجاج والإبطال، مثل: بل ولكن، وحتى... ومن جهة أخرى، تعد الاستعارة أقوى الأقوال حجاجية من الأقوال العادية كما يرى ميشيل لوغيرن في مقاله (الاستعارة والحجاج)، ومن ثم، فالاستعارة «من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، مادمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية، ومادمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري.»[34]

---

34 – أبو بكر العزاوي: نفسه، ص:105.

وإذا كانت الأقوال العادية تقبل الإبطال أو التعارض الحجاجي، مثل: (الجو جميل لكنني متعب / لن أقوم بنزهة)، فإن الأقوال الاستعارية لا تقبل هذا التعارض الحجاجي، ويأبى «أن يجيء بعده رابط من روابط التعارض الحجاجي مثل لكن وبل .أي: إنه لايقبل أن يرد في سياق الإبطال أو التعارض الحجاجي.

وهذا ما يفسره لحن الجمل الآتية:

- زيد أسد لكنه مشهور.
- خالد بحر لكنه مسرف.»[35]

وتتميز الاستعارة الحجاجية برغبة المتكلم في إيصال فكرة ما إلى المستمع تأثيرا أو إقناعا. أما الاستعارة البديعية أو الجمالية، فلا يقصد بها الحجاج أو الإقناع ، بل هي وسيلة لغوية جمالية تراد لذاتها ليس إلا. وترد الاستعارة الحجاجية في الكتابات السياسية والصحفية والعلمية والأدبية، وهي مرتبطة بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التخاطبية والتواصلية.

وعليه، فلقد اهتم دوكرو منذ 2004 م باللسانيات الحجاجية باعتبارها اتساقا بين الجمل والملفوظات. وقد أشار إلى مجموعة من أنواع الحجاج كحجاج الوصل، وحجاج الفصل، وحجاج التناقض، وحجاج الشرط، وحجاج التقييد، وحجاج التضمن، وحجاج التعارض، وحجاج الاستنتاج، وحجاج السبب، وحجاج الهدف... ويعني هذا أن الجملة حجاجية بطبيعتها وفطريتها تحمل في طياتها آثارا حجاجية واستدلالية.

وتعتمد منهجية دوكرو على وصف الشواهد اللغوية أو النصية في ضوء رؤية لغوية حجاجية تركيبا ودلالة وتداولا ، من خلال التركيز على

35 - أبو بكر العزاوي: نفسه ، ص:107.

مجموعة من المفاهيم الإجرائية ، مثل: الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، والمبادئ والعلاقات الحجاجية، والسلم الحجاجي، و الأدلة الممكنة والمحتملة، والإبطال، والدليل الأقوى، والسياق، والمقصدية، ومراتب السلم الحجاجية، والنتائج، والقوة الحجاجية، والاستعارة الحجاجية التي تشير إلى أن الأقوال الاستعارية أعلى حجاجية من الأقوال العادية.

نظريــة الحجاج الخطــابي

لقد ارتبطت نظرية الحجاج الخطابي أو الخطاب الحجاجي أو الحجاج في الخطاب بمجموعة من المنظرين والدارسين الحجاجيين، لاسيما المنظرة الإسرائيلية روث أموسي (Ruth Amossy) كما في مجموعة من كتبها خاصة (الحجاج في الخطاب)[36] ، وميشيل مايير (Michel Mayer)، وفايركلوث (Fairclough)، وموشلر(Moeschler)، ودومينيك مانكونو(Maingueneau) . . .

ويهدف هذا الخطاب إلى استعراض الآليات التي يشتغل بها الحجاج في خطاب ما، سواء أكان هذا الخطاب سياسيا أم فلسفيا أم إشهاريا أم أدبيا أم قضائيا. . . ويعني هذا أن الهدف من هذا الخطاب هو استجلاء مختلف الأدوات والروابط والإستراتيجيات التي ينبني عليها الخطاب الحجاجي في إيصال رسائل المتكلم إلى السامع للتأثير عليه أو إقناعه سلبا أو إيجابا.

ومن المعروف أن ثمة مجموعة من الأقوال والنصوص الأدبية والخطابية المختلفة التي تحمل في طياتها مقصدية حجاجية هدفها إقناع الغير، التأثير عليه. وفي الوقت نفسه، هناك نصوص وخطابات لا تهدف إلى الحجاج إطلاقا. وعلى الرغم من ذلك، يمكن استجلاء

36 - Amossy, Ruth : *L'argumentation dans le discours* ,Paris, Colin,. 2006

البعد الحجاجي في هذه النصوص إما بطريقة مباشرة وإما بطريقة غير مباشرة. وفي هذا الصدد، يقول بنيفنست (Benveniste) معرفا الخطاب :« يستلزم كل تلفظ وجود متكلم وسامع ، فيحاول المتلفظ أن يؤثر على الآخر بشكل من الأشكال».[37]

ويعني هذا أن الخطاب دائما عبارة عن عملية تفاعلية وتواصلية وتداولية تحضر فيها أطراف ثلاثة: المرسل والمرسل إليه والرسالة. ومن ثم، يعبر المرسل عن مجموعة من النوايا والرغبات والمقصديات المباشرة وغير المباشرة لإيصالها إلى السامع المفترض. ومن ثم، الكلام يغي تبادل الإرساليات، وكل قول هو فعل خاصة إذا كانت الإرساليات عبارة عن جمل إنشائية وحوارات استلزامية أو أفعال كلامية، كما نجد ذلك في الحوارات العادية أو غير العادية (النصوص المسرحية والحوارات السينمائية والمناظرات). والآتي، أن كيربرات أوريكشيوني ((Kerbrat-Orecchioni) ترى أن الكلام يعني التبادل، والتبادل يعني تغير الحوارات.[38]

ومن زاوية أخرى، يرى شارودو (Charaudeau) أن الخطاب الحجاجي يقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية: مبدأ الغيرية حيث وجود المتكلم المتلفظ والمخاطب السامع ، ومبدأ التأثير حينما يقترن الملفوظ بوظيفة التأثير على الغير، ومبدأ السيطرة الذي يقوم به المتكلم حينما يمتلك سلطة اللغة والحقيقة؛ لأن اللغة – حسب رولان بارت- سلطة، ومصدرها السلطة. فالذي يمتلك زمام اللغة يمتلك سلطة التصرف والأمر والنهي والتوجيه عن طريق التأثير والإقناع[39].

37- Benveniste, Emile : *Problèmes de linguistique générale*, t.2 Paris : Gallimard, 1974, p.241.

38- Kerbrat-Orecchioni, Catherin : *Les interactions verbales*, t.I, Paris : Colin.1990, p.54-55.

39- Charaudeau, Patrick. : *Le discours politique. Les masques du pouvoir*. Paris : Vuibert.2005, p.12.

وهل يعني هذا أن جميع النصوص والخطابات حجاجية بالضرورة؟ لقد أثبت أرسطو في كتابه (البلاغة) أن الحجاج لا يتحقق بشكل جلي إلا في بعض الأجناس، مثل: الخطاب القضائي، والخطاب الاستشاري، والخطاب البرهاني. بيد أن بيرلمان(Perelman) قد وسع إمبراطورية الحجاج لتشمل مجموعة من الخطابات، مثل : الخطاب الفلسفي والأدبي والاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي وغيرها من الخطابات التي تتضمن حجاج الأطروحات ووجهات النظر المختلفة.

ويرى أوليرون (Oléron) أن مسعى الخطاب الحجاجي هو أن يجعل المرسل، سواء أكان فردا أم جماعة، السامع أو مجموعة من السامعين، يتقبلون وضعية ما عبر مجموعة من الحجج والأدلة التي يتم من خلالها إظهار الحقيقة أو تثبيت رأي أو تبيانها أو تفنيدها.[40]

ويرى بريتون (Breton) أن الحجاج ينتمي إلى عائلة الأفعال الإنسانية التي هدفها الإقناع، ومن خصوصياتها التسلح ببرهنة عقلية حجاجية ضمن سياق تواصلي ما.[41]

ويذهب الهولندي فان إمرين(van Eemeren) وجماعة أمستردام التي بلورت التداولية الجدلية إلى أن الحجاج يتحدد باعتبارها فعالية لفظية واجتماعية للعقل، هدفها تثبيت وضعية حجاجية لدى الغير في وضعية جدالية ما بالزيادة فيها أو النقص منها، باستخدام مسار حجاجي يقوم على التوضيح والتصديق والتفنيد والتعارض في ضوء حكم عقلاني[42].

وبالنسبة لغرايس (Grize) يرى أن المحاجج يحول الغير إلى موضوع للتطويع والتحفيز عبر تبادل الآراء إقناعا وتأثيرا، من خلال

40 - Oléron, Pierre : *L'argumentation* , Paris, PUF,1987,p.4.

41- Breton, Philippe : *L'argumentation dans la communication*, Paris : La Découverte,.1996, p.3.

42- Van Eemeren, Frans H., Grootendorst, Rob and Snoek Hoekemans, Francesca. : *Fundamentals of Argumentation Theory*. NJ / London, Erlbaum, 1996, p. 53.

وتميز أموسي (Amossy) بين الهدف الحجاجي والبعد الحجاجي، فالأول عبارة عن مؤسسة إقناعية مبرمجة هدفها التأثير على الغير وإقناعه كما في الإشهار والخطاب الانتخابي، إذ يعد جذب السامع مهما جدا. أما البعد الحجاجي فيتمثل في توجيه طريقة النظر إلى الغير.[48]

ويعتمد الهدف الحجاجي على مجموعة من الوسائط والوسائل الحجاجية، مثل: الاستعراض البرهاني، وتقديم الأطروحة، وإيجاد الأجوبة، وتمثل الجدل في الحوار والاختلاف، والاعتماد على مسارات حجاجية منطقية ومعقولة لإقناع الغير، والتأثير عليه ذهنيا ووجدانيا ولغويا. ويعني هذا تقديم مقاييس حجاجية، مثل: مقياس الجدل الجدل، ومقياس التعارض، ومقياس الاختلاف، ومقياس البرهنة والاستدلال...

ويستند البعد الحجاجي إلى تغيير أفكار الغير، وإعداده لتقبل ما سيقال له عن طريق مجموعة من الخطابات التي لا يظهر فيها الحجاج مباشرة، كما في النصوص التي تعتمد التخييل كالأدب والفن مثلا.

وهكذا، يتبين لنا بأن الحجاج حاضر في جميع الخطابات إما بطريقة مباشرة (الإشهار- الانتخابات- السياسة...) ، وإما بطريقة غير مباشرة كالفلسفة والأدب والفن. وقد يظهر هذا الحجاج ماديا عبر الوسائل اللغوية، وقد يكون معنويا عبر الأفكار والمشاعر ووجود سياق حجاجي معين.

هذا، ويحضر الحجاج كذلك في عملية تجنيس الخطابات، حيث يرتبط الحجاج بوظيفة جنس ما كمعرفة وظائف الخطاب الإشهاري أو الخطاب السياسي، أو معرفة خصائص الرسائل الدبلوماسية، أو تبيان مميزات الخطاب الشفوي... والهدف من هذا كله هو معرفة علاقة

48- Amossy, Ruth : *L'argumentation dans le discours*, p. 32-34.

تعديل آرائه ومواقفه ووجهات نظره، أو تثبيت بعض آرائه، أو تعتيم الأخرى، أو اقتراح أشياء أخرى.[43]

وقد وسعت روث أموسي (Ruth Amossy) مفهوم الحجاج ليكون تعريفه واسعا، فهي ترى بأنه بمثابة محاولة حجاجية جادة لتغيير رؤى العالم عند الغير أو التأثير عليه أو تقوية هذه الرؤى عن طريق وسائل اللغة[44].

وقد توسع تعريف الحجاج أيضا مع بيرلمان الذي يرى أن الحجاج بمثابة محاولة لتقييد السامع بأطروحة معينة، والتركيز على طريقة التفكير والرؤية والإحساس؛ مما يجعل هذا التعريف الموسع أقرب إلى فن البلاغة المرتبط بفن التأثير والإقناع. فيشمل هذا الحجاج جميع الخطابات التي يحضر فيها الغير الخاص أو العام واقعا أو افتراضا، وبالضبط في خطابات كل من: علم اللغة، وعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي كما يقول شارودو.

ولا يمكن الحديث عن الحجاج إلا إذا وجد الجدال والاختلاف ووجهات النظر المختلفة، وتبين أن هناك – فعلا- تناقضا في الأطروحات الجدلية، وتعارضا في الأفكار بين مؤيد ومفند. ويرى أرسطو أننا لا نتحاجج حول الأفكار العقلية والمنطقية البديهية والقطعية والصادقة والواضحة، بل نتحاجج حول قضايا ظنية وخلافية.

ويرى ميشيل مايير(Michel Meyer) بأن الحجاج يعمل على إيجاد وحدة للجواب، وإرضاء المتلقي بحال من الأحوال، وإقناع السامع بجواب منطقي شاف، خاصة حين تتعدد الأسئلة، وتختلف وجهات النظر. فهنا، لابد من اختيار جواب مقنع يرتضي به السامع[45].

43- Grize, Jean-Blaize : *Logique et langage*, Paris, Ophrys, 1990, p.41.
44- Amossy, Ruth : *L'argumentation dans le discours*, Paris, Colin ,2006
45- Meyer, Michel : Qu'est-ce que l'argumentation ? Paris, Vrin, 2005, p.15.

و يرى كريستيان بلانتان(Christian Plantin) أن الأجوبة البديلة المقترحة لمجموعة من الآراء المتناقضة والمختلفة لابد أن تكون واضحة ومقنعة ضمن سياق حجاجي جدلي معقول ومنطقي. ويعني هذا أن السياق الحجاجي المثالي هو الذي يحدد الجواب الصائب من الخاطئ.[46] علاوة على ذلك، يطرح الحجاج الجدلي مجموعة من الأسئلة التي تستوجب حلولا يقتنع بها المستمع العادي أو المفترض، وهذا ما يقوم به الحجاج عبر الوسائل اللغوية والفكرية والشعورية. ومن ثم، فالأجوبة داخل السياق الحجاجي تهدف إما إلى التثبيت وإما إلى التفنيد وإما إلى التعديل والتغيير.

ويتحدث باختين وفولوشينوف (Bakhtine-Volochinov) عن بوليفونية جدلية وحجاجية أو المبدأ الحواري القائم على تعدد الأصوات واختلافها وتعدد الأجوبة. كما أن كل تلفظ هو في الحقيقة جواب عن سؤال ما، سواء أكان قولا أو كتابة[47]. و يقصد بالبوليفونية (Poliphonie/poliphony) لغة تعدد الأصوات. وقد أخذ هذا المصطلح من عالم الموسيقى، ليتم نقله إلى حقل الأدب والنقد. ومن ثم، فالمقصود بالرواية البوليفونية – مثلا- تلك الرواية التي تتعدد فيها الشخصيات المتحاورة، وتتعدد فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الرؤى الإيديولوجية. بمعنى أنها رواية حوارية تعددية، تنحى المنحى الديمقراطي، حيث تتحرر بشكل من الأشكال من سلطة الراوي المطلق، وتتخلص أيضا من أحادية المنظور واللغة والأسلوب. وبتعبير آخر، يتم الحديث في هذه الرواية المتعددة الأصوات والمنظورات عن حرية البطل النسبية، واستقلالية الشخصية في التعبير عن مواقفها بكل حرية وصراحة، ولو كانت هذه المواقف مخالفة لرأي الكاتب.

46- Plantin, Christian : *L'argumentation*, Paris, PUF, « Que sais-je? », 2005, p.53.

47- Bakhtine, Mikhail (Volochinov) : *Le marxisme et la philosophie du langage, Paris*, Minuit, 1977, p.105.

المتكلم بالغير، ورصد طبيعة العلاقة الحجاجية التواصلية والأهداف المرجوة. ولكل خطاب أو جنس ما خصائصه الحجاجية إن نظرية وإن تطبيقا.

وعليه، تتميز نظرية الخطاب الحجاجي بشكل من الأشكال عن نظرية الحجاج اللغوي عند أنسكومبر ودوكرو، فالأولى تعنى باستخراج الحجاج داخل النص أو الخطاب. في حين، تهتم الثانية بدراسة البنية الحجاجية في الجمل والملفوظات اللغوية واللسانية وصفا وتفسيرا.

نظرية الحجـاج المنطقي الطبيعي

إذا كان المنطق الصوري منطقا رياضيا قائما على البرهنة والاستدلال، والانطلاق من الفرضيات، والبرهنة على صحتها، وليس من الضروري أن يكون هذا المنطق الرياضي منطقا حجاجيا إقناعيا، فإن المنطق الطبيعي هو منطق لغوي، يستعمل خطابا لفظيا تبادليا بين متكلم مرسل يمتلك سلطة اللغة أو اللوغوس، وسامع طبيعي يوجد في زمان ومكان، ويحمل ثقافة معينة، وليس هذا المخاطب سامعا كونيا كما يقول شاييم بيرلمان(CH.Perelman). ومن ثم، يمتلك كل خطاب له لغة طبيعية بعدا حجاجيا مادام مرتبطا بالسياق الخارجي (الأطراف التواصلية- الزمان- المكان- الثقافة). ويعني هذا أن المرسل يقدم إلى المخاطب صورة لفظية حجاجية في شكل خطاطة مرسلة بلغة طبيعية، وهذه الخطاطة الحجاجية هي نتاج سلوك اجتماعي، وجزء من سيرورة التواصل، ويحوي ملفوظات الذات الدالة على المتكلم سياقيا. والآتي، أنها ليست ذا طبيعة رسمية أو شكلية مادامت هناك ذات متلفظة حاضرة.

ولا تستعمل الخطاطات الحجاجية كيفما يشاء الباحث، بل هي نتيجة مجموعة من العمليات المنطقية الخطابية. فهي من جهة منطقية

لأنها عمليات صادرة عن بنية الفكر. ومن جهة ثانية، فهي خطابية؛ لأنها ترتبط بالخطاب ذي اللغة الطبيعية. ومن هنا، فالنظرية المنطقية الطبيعية في مجال الحجاج هي نظرية العمليات المنطقية الخطابية التي تولد لنا مجمل الخطاطات الحجاجية. ومن ثم، يتضمن الخطاب الذي يعتمد على اللغة الطبيعية مجموعة من العمليات الذهنية والمعرفية التي يمكن أن يبنيها المتكلم للسامع في شكل خطاطات تمثلية منظمة ليقوم بإعادة بنائها.

هذا، وتنبني خطاطة التواصل عند غرايس على المرسل الذي يرسل خطاطة في شكل تمثلات واقعية ومعرفية وذهنية إلى السامع الذي بدوره يعيد بناءها من جديد. وتتمثل الرسالة في تبادل التمثلات المشتركة بينهما، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم لغوية أم معرفية.. ولا يمكن بناء الخطاطة الحجاجية إلا في سياق زماني ومكاني أو ثقافي من أجل توجيهها إلى الغير السامع. وهذا ما يعطي للخطاطة بعدا حجاجيا بامتياز. إذاً، فالخطاطة عبارة عن صورة سيميائية تتعلق بالموضوع والمرسل والمخاطب على حد سواء.[49].

وخير من يمثل هذه النظرية هو جان بليز غرايس(GRIZE, Jean-Blaise) [50]، وهدفها تقديم نظرية حجاجية في ضوء المنطق الطبيعي. وبتعبير آخر، الغرض هو دراسة نظرية ومعرفية للعلاقة الموجودة بين المنطق الطبيعي والحجاج، علاوة على استكشاف عمليات البناء الحجاجي. ومن المعروف أن الحجاج له وظيفتان بارزتان: التأثير والإقناع، فالتأثير مرتبط بالعاطفة والوجدان، و يرتبط الإقناع بالعقل والمنطق. لذا، فنظرية غريس تهتم بالإقناع العقلي الذي يترابط مع المنطق الطبيعي. ومن هنا، فلابد أن يتحول المحاجج إلى مخرج

49- Jean-Blaise Grize :(Logique Naturelle Et Représentations Sociales,(*Papers on Social Representations - Textes sur les Représentations Sociales*, (1021-5573) Vol. 2 (3), 1-159 (1993).

50- Jean-Blaise Grize: De la loqique à l'argumentation, librairie Genève et Paris Droz, 1982,266 pages.

مسرحي لإقناع السامع السياقي عبر وضع خطة حجاجية مرسومة بشكل لائق. وتنبني الخطاطة الحجاجية (schématisation) على وجود مواضيع مشتركة وقواسم معرفية بين أطراف الحجاج، وهذه الخطاطة هي أساس منطق الخطاب. ويعني هذا أن المنطق الطبيعي للحجاج يهتم بدراسة المضامين، وتبيان العمليات التي ينبني عليها الخطاب منطقيا.

ويرى إميليو غاطيكو(Emilio Gattico) بأن الخطاطة الحجاجية تحقق أنواعا ثلاثة من الانسجام: انسجام داخلي يقوم على النماذج والأنظمة الصورية ، والانسجام الخارجي الذي يتعلق بالقواسم المشتركة بين أطراف التواصل في سياق معين، والانسجام الخطابي الذي يتعلق بمجموعة من التمثلات العقلية والوجدانية التي تكون بين أطراف التواصل.[51] ومن ثم، يعنى المنطق الصوري الشكلي بالانسجام الداخلي، ويهتم المنطق الطبيعي باستكشاف السياق التواصلي الخارجي، وينبغي بذل الكثير لاحتواء الانسجام الخطابي[52].

وعليه، فالمنطق الطبيعي عند بليز غرايس هو « نسق من العمليات الذهنية التي تمكن فاعلا- متكلما، يوجد في سياق ما، من اقتراح تمثيلاته على مستمع ما، بواسطة الخطاب» .

ويتسم هذا المنطق بكونه منطقا للذوات المتكلمة (logique de sujets)، ومنطقا للموضوعات(logique des objets). وبعبارة أخرى، يتمثل هذا المنطق في مجموعة من العمليات المنطقية الخطابية التي تمكننا من توليد الخطاطات والتمثيلات وإنتاجها[53].

51- GATTICO, Emilio : (Schématisation et logique naturelle). *Relations formelles et non formelles*. Université de Neuchâtel, Travaux du Centre de Recherches Sémiologiques, 1993, n° 61, p. 97-137.

52- GRIZE, Jean-Blaise : (L'argumentation : explication ou séduction), *L'argumentation*. Presses Universitaires de Lyon, 1981, p.29-40.

53 – انظر: أبو بكر العزاوي: (من المنطق على الحجاج)، حاوره: حافيظ إسماعيلي علوي، **مجلة فكر ونقد**، المغرب، العدد 61، سبتمبر 2004م.

نظريـة الحجاج التداولي

لقد ربط الاتجاه التداولي الحجاج بنظرية أفعال الكلام والاستلزام الحواري، فالنص الأدبي ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث، بل يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال ثنائية: افعل ولا تفعل[54]. ويعني هذا أن الخطاب أو النص الأدبي، في مفهوم التداوليات التحليلية التي ظهرت في سنوات الخمسين من القرن العشرين مع أوستين، كما في كتابه(نظرية أفعال الكلام) (1962م)[55]، وسورل في كتابه (**أفعال اللغة**) (1969م)[56]،عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تنبني على ثلاثة عناصر رئيسة، وهي : أولا، فعل القول ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل في طياتها حمولات قضوية وإخبارية. وبالتالي، تشتمل على مستوى صوتي وتركيبي ودلالي، مثل: «**أشكرك ياعلي**». وثانيا، الفعل المتضمن في القول، وهو الفعل الإنجازي الذي يحدد الغرض المقصود بالقول، كصيغة الأمر في هذه الجملة:«**انتظري اللحن الجديد**». وثالثا، الفعل الناتج عن القول، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول، كإقناع المخاطب، وحثه، وإرشاده، وتوجيهه، أو تضليله... وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، و بدرجة متفاوتة، وهي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملا.

54 - Catherine kerbrat- Orrecchion : Enonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin, 1980, p. 181

55 - J.L.Austin:*Quand dire, c'est faire*, Editions du Seuil, Paris, 1970.

56 - John R.Searle: *les actes de langage*, Collection, savoir Herman, Paris, 1972.

علاوة على ذلك، يميز أوستين بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية، وتتنوع هذه الأقوال الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة. فالأقوال الإنجازية قد تكون لها قوة حرفية ، مثل: الاستفهام، والتمني، والأمر... وقد تكون لها قوة إنجازية حوارية وسياقية، مثل: الالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتحسر، ...

ويعني هذا كله أن الفعل الكلامي ينقسم إلى ثلاثة أنواع: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول، وقد لايدل الفعل المتضمن في القول على دلالته المباشرة، بل يفيد معنى إنجازيا آخر غير مباشر يحدده سياق القول. بتعبير آخر، للجملة الواحدة ثلاثة مستويات: محتواها القضوي وهو مجموع معاني مفرداتها، والقوة الإنجازية الحرفية وهي قوة مدركة مقاليا، والقوة الإنجازية المستلزمة وهي التي تدرك مقاميا. ويعني هذا أن أوستين يربط الأقوال بالأفعال، والمقال بالمقام. فأن نقول كلاما، يعني أننا ننجز فعلا. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تنبني على فعل القول (قول شيء ما) الذي يتخذ مظهرا صوتيا وتركيبيا ودلاليا، والفعل المتضمن في القول (إنجاز فعل معين ضمن قول ما)، وقد يكون فعلا مباشرا أو غير مباشر، والفعل الناتج عن القول(الآثار المترتبة عن قول شيء ما). ويتميز الفعل الكلامي بالمطابقة مع الواقع والسياق، والتعبير عن حالة نفسية، والقدرة على الإنجاز، واختلافه باختلاف منزلة المتكلم من المتلقي، والاختلاف في أسلوب الإنجاز، واختلاف القوة الإنجازية...[57]

ويمكن تقسيم أفعال الكلام حسب مايقصد بها من أغراض إنجازية إلى:

1 - **التقريريات:** وتفيد تأكيد المتكلم وإقراره لبعض الوقائع والأحداث في الواقع الخارجي، مثل: « إنني كاتب وناقد وفيلسوف».

57 - راجع: جون أوستين: *نظرية أفعال الكلام العام*، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.

2 - **الطلبيات أو الأمريات:** وتحضر في توجيه المتكلم طلبا للمخاطب لإنجاز فعل ما، مثل: «هل سيسافر أحمد غدا؟»، و« اخرجوا كلكم من مدرج الكلية».

3 - **البوحيات أو الإفصاحيات:** تعبر عن الحالة النفسية للمتكلم، مثل:« أحب أن أراك سعيدا»، و« مللت الانتظار».

4 - **الوعديات:** تفيد التزام المتكلم بإنجاز فعل في الزمان المستقبل، مثل: «أعدك بسفر رائع إلى مصر».

5 - **التصريحات:** ويقصد بها إعلان المتكلم عن إنجاز فعل يفيد تغييرا مرتقبا على مستوى العالم الخارجي، مثل:«أعلن أيها الحضور الكريم عن برنامجي الانتخابي قريبا».

وعليه، يعمد الناقد في المقاربة التداولية حين التعامل مع النص الأدبي إلى استخلاص الأفعال الكلامية أو الجمل الإنشائية أو الخبرية، وتصنيفها إلى الأفعال القضوية، والأفعال الإنجازية الخبرية، والأفعال السياقية، وتصنيف الجمل الأدبية حسب سياقها ومقامها الوظيفي والتداولي والمقصدي.

ومن جهة أخرى، ترى المقاربة التداولية والوظيفية بأن النص أو الخطاب الأدبي استلزام حواري وإنجازي. وهنا، نتحدث بطبيعة الحال عن الدلالات الصريحة والضمنية. فالاستلزام الحواري يتعلق بالدلالات البلاغية الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ومن ثم، يرتبط الاستلزام الحواري بنظرية الأفعال كما هي عند أوستين وسورل. أي: ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حواري استلزامي غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أوالسياق التداولي. وللتوضيح أكثر: قد تكون معاني العبارات اللغوية صريحة، وقد تكون ضمنية. فالمعاني الصريحة هي التي تحمل محتوى قضويا، وتتوفر على القوة الإنجازية الحرفية. فهذا معني مباشر صريح. أما المعنى الضمني

فينقسم بدوره إلى قسمين: معنى عرفي يتعلق بالاقتضاء (الإحالة)، والاستلزام المنطقي(الدلالة المنطقية)، ومعنى حواري ينقسم كذلك إلى معنى خاص(الاستلزام الحواري)، ومعنى معمم. وينتج عن كل هذا وجود أنماط من الأفعال حسب أوستين، وهي: فعل التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري. ويشمل فعل التلفظ الفعل الصوتي والفعل التركيبي.أما الفعل القضوي، فيتفرع إلى الفعل الإحالي والفعل الحملي. أما الفعلان الإنجازي والتأثيري، فلايختلفان في مقترح سيرل عنهما في مقترح أوستين كبير اختلاف. وقد اقترح سيرل كذلك أفعالا أخرى انطلاقا من نظرية الأفعال اللغوية، وصنفها في خمسة : الأفعال الحكمية(تمثل الواقع صدقا أو كذبا)، والأفعال الأمرية، والأفعال الالتزامية، والأفعال التعبيرية، والأفعال الإنجازية. بيد أن سورل يركز فقط على فعلين رئيسين، وهما:الفعل القضوي ، والفعل الإنجازي.

وبناء على ماسبق، يرى كرايس أن جمل اللغة الطبيعية قد لاتدل على معانيها القضوية المباشرة والحرفية، بل تخرج إلى دلالات سياقية إنجازية. لذا، صاغ قانون التعاون بمبادئه الأربعة: مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ التعبير، ومبدأ المناسبة. ومن ثم، يسمي كرايس هذا النوع من الجمل الإنجازية التي تحمل معاني سياقية ضمنية بالاستلزام الحواري. ويتحقق هذا الاستلزام حينما تخرق إحدى القواعد الأربع ، مع احترام مبدإ التعاون. ويدرج كرايس هذا النوع من الدلالة في تصنيف عام للمعاني التي يمكن أن تدل عليها العبارات اللغوية. ويشرح الباحث اللغوي المغربي أحمد المتوكل ماقلناه سابقا بقوله: «تنقسم الحمولة الدلالية للعبارة اللغوية إلى معان صريحة ومعان ضمنية، وتعد معاني صريحة المعاني المدلول عليها بصفة الجملة ذاتها . في حين، تعد ضمنية المعاني التي لاتدل عليها بصيغة الجملة.

تشمل حمولة المعاني الصريحة: (أ) المحتوى القضوي (معاني مفردات الجملة مضموما بعضها إلى بعض)، و(ب) القوة الإنجازية الحرفية (القوة الإنجازية المشار لها بصيغة الجملة كالاستفهام والأمر والإخبار...).

2 - المعاني الضمنية صنفان: معان عرفية ومعان حوارية (أو سياقية).

تعد معاني عرفية المعاني المرتبطة بالجملة ارتباطا يجعلها لاتتغير بتغير السياقات. في حين، تعد معاني حوارية المعاني التي تتولد طبقا للسياقات أو المقامات التي تنجز فيها الجملة. من المعاني المتضمنة عرفا المعنى المقتضى أو الاقتضاء، والمعنى المستلزم منطقيا أو الاستلزام المنطقي.

أما المعاني الضمنية المتولدة عن السياق، فهي نوعان: المعاني الناتجة عن سياق خاص والمعاني البالغة من العموم أنها لم تعد مرتبطة بسياق خاص أو بطبقة معينة من السياقات. يصطلح كرايس على تسمية هذين النوعين من المعاني الضمنية«الاستلزامات الحوارية الخاصة» و«الاستلزامات الحوارية المعممة» على التوالي.[58]

وإذا أخذنا على سبيل المثال جملة: « هل تعيرني القلم الأحمر؟»، فالمعنى القضوي يتمثل في جمع الكلمات والمورفيمات التالية: هل- تعير- ني- القلم الأحمر. أما القوة الإنجازية الحرفية فتتمثل في الاستفهام والأداة «هل» والتنغيم. وإذا جمعنا القضوية مع الإنجاز الحرفي، فيتشكل لدينا المعنى الصريح من الجملة أو العبارة.

أما المعنى الضمني في الجملة، فيتألف من معنيين عرفيين، وهما: الاقتضاء (اقتضاء وجود قلم أحمر)، والاستلزام المنطقي(كون القلم

58 - د. أحمد المتوكل: *اللسانيات الوظيفية*، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010م، ص:28.

ذا لون)، ومعنى حواري خاص أو استلزام حواري خاص، وهو معنى الالتماس. أي: التماس المتكلم من المخاطب أن يعيره القلم الأحمر.[59]

ويمكن التمثيل للاستلزام الحواري المعمم بالجملتين المنفيتين التاليتين:

1 - ألم أعطك كل ماعندي؟

2 - أما بلغت مرادك؟

فهاتان الجملتان، وكل الجمل التي هي من هذا النوع، تفيدان في جميع السياقات معنى الإثبات. [60]

ونلاحظ من كل هذا أن ظاهرة الاستلزام الحواري، كما طرحها كرايس، قد درست في إطار البلاغة الجديدة ونظرية الأفعال اللغوية، بمعنى أن«ظاهرة الاستلزام الحواري درست، بعد كرايس، في إطار نظرية الأفعال اللغوية على أساس أنها ظاهرة تعدد الأفعال اللغوية بالنسبة للمحتوى القضوي الواحد. يصنف سيرل الجمل، من حيث عدد الأفعال اللغوية المواكبة لها،صنفين:جملا يواكبها فعل لغوي واحد، وجملا يواكبها أكثرمن فعل لغوي واحد(فعلان لغويان في أغلب الحالات). في حالة مواكبة فعلين لغويين اثنين للجملة الواحدة، يميز سيرل بين الفعل اللغوي المباشر والفعل اللغوي غير المباشر،بين الفعل اللغوي الحرفي المدلول عليه بصيغة الجملة ذاتها والفعل اللغوي المفاد من المقام.»[61]

وللتمثيل، نختار المثال التالي:

س: لنزر سمير في حديقته هذا اليوم.

ج: علي أن أحضر درس الامتحان

59 - د. أحمد المتوكل: نفسه، ص: 29-30.

60 - د. أحمد المتوكل: نفسه، ص: 29-30.

61 - د. أحمد المتوكل: نفسه، ص: 30 .

يتحقق في هذا المثال فعلان لغويان: فعل لغوي مباشر هو إعداد الدرس استعدادا للامتحان، وفعل لغوي غير مباشر هو رفض الدعوة.

هذا من جهة، ويرى أحمد المتوكل من جهة أخرى بأن فلاسفة اللغة العادية لم يهتموا بجوانب أخرى من« تداوليات اللغات الطبيعية كالجوانب المرتبطة بالبنية الإخبارية للجملة عنايتهم بالإحالة والاقتضاء والأفعال اللغوية والاستلزام الحواري. هذه الجوانب المغفلة في الدرس الفلسفي هي أنواع العلاقات الإخبارية القائمة بين مكونات الجملة. فبالإضافة إلى العلاقات الدلالية (الأدوار الدلالية) كالمنفذ والمتقبل والمستقبل والأداة، والعلاقات التركيبية كالفاعل والمفعول، تقوم بين مكونات الجملة علاقات تداولية كالمبتدإ والذيل والمنادى والمحور والبؤرة والمعطى والجديد وغيرها.»[62]

هذا، وإذا انتقلنا إلى النص الأدبي لتحليله تداوليا، فنقوم بتصنيف العبارات اللغوية ، سيما البلاغية منها خبرا كانت أم إنشاء، إلى عبارات صريحة المعنى، فنحدد أفعالها القضوية، ثم تبيان قوتها الإنجازية الحرفية. وبعد ذلك، ننتقل إلى استكشاف المعاني الضمنية، سواء أكانت اقتضائية إحالية أم عرفية أم منطقية. ومن ثم، ننتقل إلى الاستلزام الحواري باستكشاف المعاني الإنجازية السياقية والمقامية، سواء الخاصة منها أم العامة. ويمكن الاستعانة بالمفاهيم التي تنبني عليها التداوليات الوظيفية لاستخلاص المعاني الاستلزامية السياقية والمقامية، من خلال التركيز على الأدوار التركيبية النحوية ، والأدوار الدلالية، والأدوار التداولية. فضلا عن ذلك، يمكن تصنيف أفعال النص الأدبي إلى أفعال تلفظية، وأفعال قضوية، وأفعال اقتضائية، وأفعال عرفية، وأفعال إنجازية حرفية، وأفعال إنجازية سياقية، إلخ...

---

62 - أحمد المتوكل: نفسه، ص:32.

منهجية تحليل النص الحجاجي

تهدف المقاربة الحجاجية إلى تحليل النصوص أو الخطابات التي تتضمن أبعادا حجاجية مباشرة أو غير مباشرة. لذا، على الباحث أن يحلل النص بنية ودلالة ووظيفة، ويستخرج المقاييس الحجاجية وخطاطاتها المبنية ذهنيا من قبل المتكلم والمخاطب على حد سواء، وتجريد التمثلات المشتركة بين الأطراف المتحاورة، وتصنيف المقاييس والمقولات الحجاجية، ووصفها وتفسيرها لغويا وبلاغيا وتداوليا وجدليا وخطابيا. بمعنى أنه لابد من الاستعانة بمجموعة من النظريات المتكاملة في مقاربة الخطابات ذات البعد الحجاجي.

وقد يعتمد التحليل الحجاجي على مفاهيم أرسطو مثل: القياس والمماثلة والاستدلال المنطقي. وهناك من يقترح نماذج الخطة الحجاجية لتولمين (Toulmin)[63]. وهناك من يتبنى نظرية أنسكومبر ودوكرو في رصد الظواهر اللغوية التي تحمل في طياتها ملامح حجاجية قائمة على التعارض أو السبب أو الاستنتاج أو الهدف أو التقابل أو الافتراض... وهناك من يوسع البحث الحجاجي ليبحث في تصنيفات أخرى كالاعتماد على المنطق الصوري لرصد أخطاء الفكر وأوهامه وتناقضاته، أو الاعتماد على المنطق الطبيعي لرصد مختلف التمثلات المعرفية والاجتماعية التي تجمع بين طرفي التواصل في سياق زماني ومكاني وثقافي معين بالتركيز على بنية الخطاطات الحجاجية.

وينضاف إلى هذا أن الحجاج عبارة عن ملفوظات واقتراحات متسلسلة بشكل منطقي وواضح لابد من تجريدها، والبحث عن مظاهرها الحجاجية، واستجلاء طريقة بنائها وانتظامها داخل مسار حجاجي معين، وداخل سياق استدلالي محدد. والغرض من هذا كله هو معرفة كيفية اشتغال مؤسسة الحجاج ضمن سياق تواصلي معين من المجرد إلى المحسوس.

63- Toulmin, S. E. : *Les usages de l'argumentation,* Paris, PUF, 1993.

ولابد للمحلل من التركيز على اللغة الطبيعية أو اللوغوس؛ لأن الحجاج النصي أو اللغوي يبنى عبر مجموعة من الروابط والمؤشرات التلفظية والوسائل المنطقية ، فلابد من استخلاص هذه القرائن اللغوية وتصنيفها، ومعرفة دلالاتها ووظائفها وبنياتها. ولابد من استحضار شبكة التواصل التي تجمع بين الأطراف المتحاورة. أي: ضرورة تحديد الوسائل اللسانية والإستراتيجيات الخطابية التي تهدف إلى تثبيت مؤسسة الحجاج وتقويتها. وهنا، لابد من الاستعانة بنظرية سياق التلفظ كما عند بنيفنست (Benveniste) بتحديد المتلفظ وطبيعته وسياق تواجده، وكذلك خصائص المتلفظ إليه، وتبيان الإرسالية وسياقها الزماني والمكاني والدلالي. والهدف من هذا كله هو استجلاء البعد المؤسساتي والاجتماعي عبر عملية التواصل الواقعية أو الافتراضية. ويعني هذا ترابط الحجاج بالواقع . وهذا ما قام به- فعلا – مانكونو (Maingueneau) حينما ربط اللغوي بالمؤسساتي أو ربط المؤسسة الحجاجية بواقعها السياقي. وهنا، ينبغي التركيز على اللوغوس، والسياق التواصلي، والبعد المؤسساتي

وعليه، تنبني منهجية الحجاح على تحديد السياق التواصلي والإطار الاجتماعي التاريخي، وتبيان مقاييس الحجاج، واستكشاف الأدوات اللغوية الحجاجية كالصور البلاغية والأساليب(الحوار ، والسرد، والمنولوج، والأسلوب المباشر، والأسلوب غير المباشر، والأسلوب غير المباشر الحر)، وتبيان البوليفونية وتعدد الأصوات على المستوى الدلالي واللغوي، وتحديد وجهات النظر والإديولوجيا، ودراسة المضمر والمحذوف، وتبيان طريقة بناء النص خطابيا، واستكشاف روابط الحجاج وقرائن الاستدلال، والإشارة إلى حضور الغير السامع الواقعي أو الافتراضي، سواء أكان النص مكتوبا أم شفويا. ويعني هذا كله التركيز على ثلاثة مرتكزات حجاجية متكاملة:

اللوغوس(تقنيات اللغة الحجاجية)، والإيتوس (الصورة الأخلاقية الفضلى للمتكلم وكفاءته معرفيا وقيميا)، والباتوس (الترغيب والترهيب) .

وبناء على ماسبق، يمكن حصر الخطوات المنهجية التي تستند إليها المقاربة الحجاجية في التعامل مع النصوص والخطابات كيفما كان نوعها فيما يلي:

1 - دراسة الحجاج في لغته الطبيعية وفي ماديته الخطابية ضمن خطاب وظيفي كلي.

2 - ربط الحجاج بسياقه التواصلي باستحضار أطراف التواصل والموضوع والزمان والمكان والثقافة والتمثلات المشتركة.

3 - رصد آليات الحجاج وخططاته، وتبيان طبيعتها وطريقة اشتغالها داخل الخطاب قبل الكلام وبعده، حين طرح الدعوى والدعوى المضادة، ومحاورتها حجاجيا في لحظات: التشكيك والتفنيد والتعديل والتصحيح والتأييد والتثبيت...

4- استجلاء اللوغوس والإيتوس والباتوس .

هذا، وتوظف المقاربة الحجاجية في يومنا هذا في تحليل مجموعة من الخطابات ، مثل: الخطابات اللسانية واللغوية، والخطاب الأدبي، والخطاب الفني، والخطاب الفلسفي، والخطاب العلمي، والخطاب الإعلامي، والخطاب التاريخي، والخطاب السياسي.... ولقد أصبحت المقاربة الحجاجية أداة ناجعة لمقاربة جميع النصوص والخطابات في حقول معرفية مختلفة. وليس من الضروري أن تجيب عن أسئلة لغوية ولسانية محضة، بل يمكن أن تجيب عن أسئلة إعلامية أو أدبية أو تاريخية أو أنتروبولوجية...ويعني هذا أن الأسئلة والأجوبة تختلف باختلاف النصوص والخطابات.

وخلاصة القول : إن الحجاج سمة بارزة في الملفوظات اللغوية والنصوص والخطابات، سواء أكانت مكتوبة أم شفوية، بطريقة واضحة أو مضمرة. ويكون الحجاج واضحا في الخطابين: الإشهاري والسياسي، ويختفي بشكل من الأشكال وراء أقنعة تخييلية ورمزية وجمالية في الأدب والفن.

وعليه، يمكن الحديث عن مجموعة من النظريات الحجاجية، مثل: النظرية الحجاجية الأرسطية، والنظرية الحجاجية عند الأرسطيين الجدد كشايم بيرلمان (Perleman) وألبريخت تيتيكا (Olbrechts Tyteca)، ونظرية الحجاج التداولي المتعلقة بأفعال الكلام والاستلزام الحواري عند جون أوستين(J.Austin)، وسورل (Searl)، وكرايس (Paul Grice)، وأحمد المتوكل...، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أموسي(Ruth Amossy)، ودومينيك مانكونو(Maingueneau)، وميشيل مايير(Michel Mayer)، وفايركلوث (Fairclough)، وموشلر(Moeschler)...، ونظرية الحجاج المنطقي الطبيعي مع السويسري جان بليز غرايس(J Blaise Grice).



البلاغة عنقاء هذا الزمان، لقد احترقت لتنبعث من رمادها من جديد.

جميل حمداوي

قال حازم القرطاجني: «وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يَتَأَتَّى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار». (منهاج البلغاء. 88).

الفصل الثاني

من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة

توطئـة

عرفت البلاغة الإنسانية مجموعة من المراحل منذ نشأتها في اليونان ضمن فضاء سياسي خطابي ديمقراطي وجماهيري. وقد انتقلت هذه البلاغة من فن الخطابة إلى فن الإقناع، ففن الإمتاع، ثم فن الكتابة والبيان، ثم وصف الأسلوب والخطاب والصورة، ثم استجلاء ملامح الحجاج والتداول. ومن هنا، يمكن الحديث عن بلاغتين: كلاسيكية وجديدة؛ فالبلاغة الكلاسيكية هي بلاغة بيانية معيارية وتعليمية تساعد الكاتب أو الخطيب على كيفية الكتابة والإنشاء والخطابة. أي: هي أداة للإبداع، ووسيلة للتفنن في الكتابة بغية الوصول إلى تأليف الكلام السامي، وأداة ناجعة لاكتساب ملكة الفصاحة والبلاغة والبيان.

ومع منتصف القرن العشرين، أصبحت البلاغة في ثوب جديد؛ لأنها كانت تعنى بوصف قواعد الخطابات والأجناس الأدبية، وتصنيف الصور البلاغية والمحسنات البديعية، وتبيان وظائفها في ضوء مناهج معاصرة لسانية وبنيوية وسيميائية وشعرية (Poétique). ولم تقتصر البلاغة الجديدة على ماهو لساني في دراسة الصور والخطابات الأدبية، بل كانت تهتم بالحجاج في الخطابات الفلسفية، والأخلاقية،

والاجتماعية، والقانونية، والسياسية مع شايم بيرلمان (C.Perelman) ولوسي أولبريخت تيتيكا L.Olbrechts Tydeca.

وأكثر من هذا يمكن الحديث أيضا عن بلاغة سيميائية مع رولان بارت (R.Barthes) وجماعة مو (Groupe μ)، وهدفها دراسة العوالم والأنظمة والأنساق السيميائية، سواء أكانت لفظية أم غير لفظية، ضمن ما يسمى بالسيمياء المرئية أو البصرية La sémiotique visuelle. إذاً، ماهي أهم الاتجاهات والمدارس والتيارات التي عرفتها البلاغة في مسيرتها التطورية؟ وماهي مميزات كل اتجاه على المستوى النظري والتطبيقي؟ هذا ما سوف نرصده في موضوعنا هذا.

البلاغة الكلاسيكيـة (بلاغة الإقناع والإمتاع)

تمتاز البلاغة القديمة بطابعها التعليمي المعياري والبياني، فقد كان هدفها الأساس هو تزويد المبدع أو الكاتب المنشئ بمجموعة من الأدوات التي يحتاجها في مجال الكتابة الفنية والجمالية بغية اكتساب ملكة الفصاحة والبلاغة. ومن جهة أخرى، اهتمت بدراسة الصور البيانية من تشبيه، واستعارة، ومجاز، وكناية، وتشخيص، ودراسة علم المعاني من خبر وإنشاء، وحصر وقصر، وإطناب ومساواة وإيجاز، واستعراض المحسنات البديعية من سجع ، وجناس، وطباق، ومقابلة، وتورية، وتضمين، وتكرار، وغيرها... ويعني هذا أن البلاغة الكلاسيكية كانت تعليمية بامتياز، مادامت وظيفتها تلقين الكاتب أو الخطيب فنون الكلام الجميل لكي يكون كلامه ساميا، ويصبح آية في الفصاحة والبيان والبلاغة.

هذا، ولقد كانت البلاغة عند السوفسطائيين اليونانيين فنا للجدل والسفسطة وتضليل الخصوم ، فاعتمدوا على الشك منهاجا للبلوغ إلى أهدافهم، فاتخذوا البلاغة وسيلة للاكتساب والارتزاق مقابل تعليم

الناس فنون الخطابة والجدل السياسي وفن الحوار والسخرية والتهكم. ومن بين هؤلاء جورجياس وبروتاغوراس اللذان كانا يدرسان أفراد المجتمع الأثيني فن البلاغة بغية تأهيلهم لممارسة فن الخطابة والمناورة الحوارية والارتجال الحجاجي. والغرض من ذلك هو إفحام الخصوم ذهنيا ووجدانيا، والتفوق عليهم في فن الخطابة والجدل السياسي والقضائي.

وقد وقف سقراط موقفا انتقاديا لاذعا من هؤلاء الشكاكين الذين تمثلوا المنهج المغالطي الذي كان ينطلق من مقدمات خاطئة ليصل إلى نتائج خاطئة. فكرس سقراط فلسفته الأخلاقية لفضح ألاعيبهم اللعينة، وتبيان مكائدهم الخطيرة، والتعريض بجدلهم التضليلي.

ومن جهة أخرى، رفض أفلاطون تصورات السوفسطائيين الجدلية ؛ لأنها مبنية على الخداع والتشكيك وتضليل الناس. ومن هنا، فقد ميز بين بلاغتين: بلاغة سفسطائية واهمة ونسبية وخادعة وغير حقيقية. وبلاغة فلسفية حقيقية موضوعها إثبات الحق، وتفنيد الخطأ. أي: إن موضوع البلاغة هو الحق، وهدفها إظهار الحقيقة المطلقة المثالية عن طريق العقل والحجاج والحوار، كما يتبين ذلك جليا في محاورتي (جورجياس) و(فيدر). ويذهب أفلاطون إلى أن البلاغة الفلسفية بمثابة جدال حواري عقلاني، هدفها استكشاف الحق والمطلق. في حين، ترتكز البلاغة السوفسطائية على الشك والوهم والنسبي والمتغير.

وفي الوقت نفسه، كانت البلاغة عند بعض المنظرين اليونانيين كأرسطو خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتي التأثير والإقناع ، ويتوجه إلى الجمهور السامع قصد توجيهه أو إقناعه إيجابا أو سلبا. وفي هذا النطاق، يقول أرسطو: «ويحصل الإقناع ، حين يهيأ المستمعون ويستمليهم القول الخطابي، حتى يشعروا بانفعال ما، لأننا لانصدر الأحكام على نحو واحد حسبما نحس باللذة أو الألم، والحب

والكراهية... والخطاب هو الذي ينتج الإقناع حينما نستخرج الصحيح والراجح من كل موضوع يحتمل أن يقع فيه الإقناع.

ولما كانت الأدلة تختص بهذه الوسائل كان استعمالها يفترض أولا على وجه ظاهر، الاستعداد للاستدلال القياسي، والمعرفة النظرية بطبائع البشر، وثانيا معرفة الأخلاق والفضائل، وثالثا معرفة الانفعالات وذلك بأن نعرف طبيعة كل انفعال وأحواله وأسبابه، والهيئات الراسخة التي يحدث بها كل انفعال عند المستمعين، ويلزم عن ذلك أن البلاغة تكاد تكون فرعا من الجدل وعلم الأخلاق، ويصح أن تسمى السياسة. ولهذا السبب على وجه الضبط، تتخذ البلاغة المظهر السياسي والذين تستمليهم ممارستها، يرونها كذلك، تارة لضعف ثقافتهم، وتارة تدجيلا منهم وشعوذة؛ وتارة أخرى لأسباب إنسانية؛ وكأنها قسم للجدل ونظير له كما وصفنا هذا في مبدإ قولنا. إذ كل واحد منهما ليس هو علما له موضوعه المتمايز حتى تعرف خواص كل واحد منهما، وإذاً كلاهما ليسا إلا قدرات أو ملكات يقتدر بها على تقديم الحجج.»[64]

وتأسيسا على ما سبق، يعد أرسطو المؤسس الحقيقي للبلاغة ومنطق القيم. وقد سبق عصره بآرائه البلاغية الرائدة في مجال الحجاج والإقناع. وقد ألف ثلاثة كتب في البلاغة هي: (فن الشعر / Poétique، و(فن الخطابة / Rhétorique، والحجج المشتركة (Topiques).

ويعتبر أرسطو البلاغة فنا خطابيا بامتياز، إذ يستخدم أدوات حجاجية واستدلالية ومنطقية للتأثير في الآخر، وإقناعه ذهنيا ووجدانيا. ويتم ذلك الحجاج عبر مجموعة من الوسائل الأدائية، فإما أن يتحقق عبر اللوغوس الذي يعني الكلام والحجج والأدلة، ويظهر ذلك جليا

---

64 - أرسطو: **فن الخطابة**، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2008م، ص: 16.

في نسق الرسالة التواصلية. وإما يتحقق عبر الإيتوس الذي يتمثل في مجموعة من القيم الأخلاقية والفضائل العليا التي ينبغي أن يتحلى بها الخطيب أو البلاغي المرسل. وإما يتجسد في الباتوس الذي يتعلق بالمخاطب، ويكون في شكل أهواء وانفعالات، أو ما يسمى في الثقافة العربية بثنائية الترغيب والترهيب.

وقد ميز أرسطو كذلك بين ثلاثة خطابات بلاغية: أولا، خطاب قضائي يهدف القضاة من ورائه إلى معرفة الحقيقة بغية تحقيق العدالة. والآتي، أنهم يستعملون زمن الماضي والقياس المنطقي. وثانيا، الخطاب الاستشاري الذي يتخذ طابعا سياسيا، وهدفه تحقيق الخير للصالح العام، ويستخدم زمن الحاضر، ويستعين حجاجيا بالأمثلة. ثالثا، الخطاب البرهاني القائم على مدح الآخر أو ذمه ، والهدف منه تثبيت الجمال أو الدفاع عن فضيلة أو قيمة أخلاقية عليا ما. ويستعمل هذا الخطاب جميع الأزمنة بما فيها الحاضر والماضي والمستقبل، وكذلك أسلوب المبالغة والتضخيم.

وعلى العموم ، لم يتأت للبلاغة أن تنشأ وتترعرع علما ومعرفة ونظرية إلا في بيئة سياسية خطابية ديمقراطية كما في مجتمع أثينا في عهد بركليس، و تنضج علميا مع تأسيس أول مدرسة بلاغية مع إسقراط (Isocrate) لمناقشة القضايا الخطابية والأدبية والسياسية والاجتماعية. وقد تشابكت البلاغة زمنا مع الفلسفة والأخلاق والسياسة والجدل إلى أن استقلت بنفسها عن الفلسفة أم العلوم. ومن ثم، فنشأة البلاغة – إذاً– يونانية المنبت بامتياز، سواء أكان ذلك على مستوى النظرية أم على مستوى التطبيق أم على مستوى الفلسفة. ثم اقتفى الرومان آثار اليونانيين في التعامل مع البلاغة اهتماما وممارسة وأداء. ومن أهم المنظرين البلاغيين الأوائل نستحضر: أرسطو، وأنكسمانس، وشيشرون، وكينتيليان، وديمتريوس، وهيرموجين، وهيرماغوراس،

وإسقراط... وقد انحصرت البلاغة خاصة في الخطابين السياسي والقضائي.

وبعد ذلك، تطورت البلاغة في الثقافة العربية بآلياتها البيانية، فارتبطت بالقرآن الكريم وسؤال الإعجاز فصاحة وصورة ومعنى وبديعا ومقاما. كما تطورت البلاغة في الثقافة الغربية قديما وحديثا، فانتقلت من طابعها المعياري التعليمي إلى طابعها العلمي والوصفي لسانيا وحجاجيا وتداوليا وسيميائيا.

وعليه، فقد كانت البلاغة التقليدية بمثابة عدة منهجية يتزود بها الخطيب أو الكاتب في الحوارات الجدلية والسياسية والقضائية والمناظرات الفلسفية والأدبية والنحوية. وكانت في عمومها تطرح أسئلة جوهرية مؤرقة، تتعلق – أولا- بتحديد مظاهر الإعجاز القرآني في الثقافة العربية. وتتناول - ثانيا - الحقيقة والمجاز أو الواقعي والمحتمل. وتعنى – ثالثا- بثنائية الصدق والكذب.

البلاغة الجديدة (من المعيارية إلى الوصفية)

يمكن الحديث – اليوم- عن بلاغتين أساسيتين: بلاغة كلاسيكية تقليدية تتسم بطابعها المعياري التعليمي، وبلاغة جديدة علمية لسانية وحجاجية تعنى بوصف الخطاب البلاغي، مع تبيان قواعده المضمرة، واستخلاص بنياته ودلالاته ووظائفه التداولية والحجاجية. وقد تفرعت عن البلاغة الجديدة مجموعة من الاتجاهات اهتمت بالبعد البلاغي بشكل من الأشكال. وهذه الاتجاهات هي:

1 – الاتجاه اللساني (بلاغة الصور والخطابات)

تأسست البلاغة الجديدة ذات الطابع اللساني ما بين سنوات الخمسين والستين من القرن العشرين، وتعنى بنظرية الأدب، ودراسة

الصور البلاغية، والبحث في أدبية النصوص والخطابات في ضوء الشعرية و البنيوية والسيميائية، كما هو الحال مع دراسات كل من: رولان بارت (R.Barthes)، وجيرار جنيت(G.Genette)، وتزتيفان تودوروف (T.Todorov)، وأوزوالد دوكرو(O.Ducrot)، ورومان جاكبسون (R.Jakobson)، وجان مولينو (J.Molino)، وميشيل ريفاتير(M. Rifaterre)، وجان كوهن(J.Cohen)، وجماعة مو(Groupe µ)...

هذا، وتحتل الصور البلاغية مكانة هامة في الدراسات الأدبية والنقدية البنيوية والسيميائية؛ لأن الصورة هي جوهر الأدب وبؤرته الفنية والجمالية. كما أن الأدب فن تصويري يسخر الصورة للتبليغ والتوصيل من جهة، والتأثير على المتلقي سلبا أو إيجابا من جهة أخرى. ولكن الأدب ليس هو الفن الوحيد الذي يستثمر الصورة في التعبير والتشكيل والبناء، بل تشاركه في ذلك مجموعة من الأجناس الأدبية والفنية كالرواية، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جدا، والقصة الشذرية، والمسرح، والسينما، والتشكيل... ويعني هذا أن الصورة لم تعد حكرا على الأدب، بل لها نطاق رحب وواسع، ولم تعد تحتكم إلى مقاييس البلاغة التقليدية، سواء أكانت عربية أم غربية، بل تطورت هذه الصورة البلاغية، وتوسعت مفاهيمها، وتنوعت آلياتها الفنية والجمالية، وتعددت معاييرها الإنتاجية والجمالية والوصفية. ولم يتحقق ذلك إلا مع تطور العلوم والمعارف، بما فيها الفلسفة، وعلم الجمال، والبلاغة، واللسانيات، والسيميوطيقا، والشعرية، والمنطق، والتداوليات...والآتي، أن الصورة أصبحت قاسما مشتركا بين هذه الحقول المعرفية والعلمية؛ إذ يدرس كل تخصص الصورة في ضوء رؤية معينة، يفرضها منطق التخصص المعرفي، وتستوجبه آلياته المنهجية والتحليلية في الفهم والتوصيف والتفسير.

وهكذا، فقد ظهرت مجموعة من الدراسات اللسانية التي تحاول تصنيف الصور البلاغية في ضوء معايير منهجية محددة، وأيضا في ضوء مقولات تصنيفية، حيث صنفت الصور البلاغية في ضوء المعيار الصوتي أو الخطي، وصنفت صور أخرى في ضوء المورفيم (الزوائد واللواحق والمقاطع)، أو حسب طبيعة الكلمة أو المركب (Syntagme) أو التركيب(syntaxe). وصنفت أخرى حسب طبيعة الدلالة أو السياق التداولي. ومن جهة أخرى، نمطت هذه الصور حسب المحاور اللسانية، فهناك صور المحور الاستبدالي، مثل: صورة السخرية. وهناك أيضا صور المحور التأليفي، مثل: الاستعارة.

وهناك من يرتبها بطريقة أخرى أكثر تنظيما، مثل جان دوران (J.Durand) وجماعة لييج (جان دوبوا وآخرون)، حيث يتحدثون عن صور منطقية، مثل: صور الوصل والربط، وصور الحذف، وصور التعويض (تجمع بين الوصل والحذف)، وصور الاستبدال. ويقسم دوران هذه الصور كذلك إلى صور الهوية، وصور المشابهة، وصور الاختلاف، وصور التعارض. وهناك من يضيف إليها الصور المعقدة، والصور البسيطة، والصور الجزئية، والصور الكلية.

هذا، وتثبت جماعة لييج بأن الاستعارة في الحقيقة ليست سوى مجاز مرسل ثان[65]. وقد صنفت الصورة كذلك إلى صور الفكر، وصور الدلالة، وصور النطق والتعبير، وصور الأسلوب، وصور البناء والتأليف، وصور الكلمات، وتجتمع هذه الصور بشكل من الأشكال في النصوص الشعرية والسردية والحجاجية[66]. كما ربط جان كوهن بلاغة النصوص والصور بالانزياح والخرق الدلالي والإيقاعي والمنطقي والفضائي والتركيبي...

65- Oswald Ducrot /Tzvetan Todorov: *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,* collection Points, édition du Seuil, 1972, p.356.

66 - Jean Dubois et autres : *Dictionnaire de linguistique*, Larousse, Paris, 1991, p.214.

ومن ناحية أخرى، يركز هذا الاتجاه اللساني على دراسة الوظيفة الشعرية كما عند رومان جاكبسون الذي يتحدث في مقاربته التواصلية الوظيفية عن ستة عناصر أساسية[67]، وهي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع ، واللغة.

وللتوضيح أكثر، نقول: يرسل المرسل رسالة إلى المرسل إليه، حيث تتضمن هذه الرسالة موضوعا أو مرجعا معينا، وتكتب هذه الرسالة بلغة يفهمها كل من المرسل والمتلقي. ولكل رسالة قناة حافظة، كالظرف بالنسبة للرسالة الورقية، والأسلاك الموصلة بالنسبة للهاتف والكهرباء، والأنابيب بالنسبة للماء، واللغة بالنسبة لمعاني النص الإبداعي... ويعني هذا أن اللغة ذات بعد لساني وظيفي، وأن لها ستة عناصر ، وست وظائف: المرسل ووظيفته انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيرية، والرسالة ووظيفتها جمالية، والمرجع ووظيفته مرجعية، والقناة ووظيفتها حفاظية، واللغة ووظيفتها وصفية وتفسيرية. و هذه النظرية مثبتة في كتاب جاكبسون (اللسانيات والشعرية) الذي ألفه سنة 1963م[68] ، حيث انطلق من مسلمة جوهرية مَفَادُهَا أن التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة، فَحَدَّدَ للغة ستة عناصر أساسية، ولكل عنصر وظيفة ما. وقد تأثر جاكبسون في هذه الخطاطة التواصلية بأعمال فرديناند دوسوسير Ferdinand. De Saussure ، والفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين John L. Austin.

وعليه، فكثير من النصوص والخطابات والصور والمكالمات الهاتفية عبارة عن رسائل يرسلها المرسل إلى مرسل إليه، حيث يحول المتكلم رسالته إلى نسيج من الانفعالات والمشاعر والأحاسيس الذاتية،

67 - JAKOBSON, R. *Essais de linguistique générale*, Paris, Éditions de Minuit, 1963.

68- JAKOBSON, R. : (Linguistique et poétique), *Essais de linguistique générale,* Paris, Minuit, 1963, p. 209-248.

ويستخدم في ذلك ضمير المتكلم. ومن ثم، يتخذ المرسل بعدا ذاتيا قوامه التعبيرية الانفعالية. بمعنى أن الوظيفة الانفعالية التعبيرية هي التي تحدد العلائق الموجودة بين المرسل والرسالة. وتحمل هذه الوظيفة في طياتها انفعالات ذاتية، وتتضمن قيما ومواقف عاطفية ومشاعر وإحساسات يسقطها المتكلم على موضوع الرسالة المرجعي. أما المرسل إليه، فهو المخاطب الذي توجه إليه رسائل المتكلم بضمير المخاطب بغية إقناعه أو التأثير عليه، أو إثارة انتباهه سلبا أو إيجابا. ومن هنا، فإن الوظيفة التأثيرية هي التي تقوم على تحديد العلاقات الموجودة بين المرسل والمتلقي، حيث يتم تحريض المرسل إليه، وإثارة انتباهه، وإيقاظه عبر الترغيب والترهيب، وهذه الوظيفة ذاتية بامتياز، مادامت قائمة على الإقناع والتأثير. إذاً، يتحول الخطاب اللفظي أو غير اللفظي إلى رسالة، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه ، فيساهمان في تحقيق التواصل المعرفي و الجمالي، وهذه الرسالة مسننة بشفرة لغوية ، يفككها المستقبل، ويؤولها بلغته الواصفة. وتتجسد هذه الرسالة ذات الوظيفة الشاعرية أو الجمالية عن طريق إسقاط المحور الاستبدالي على المحور التأليفي، أو إسقاط محور الدلالة والمعجم على محور التركيب والنحو انزياحا أو معيارا. ويعني هذا أن الوظيفة الجمالية أو الشعرية هي التي تحدد العلائق الموجودة بين الرسالة وذاتها، وتتحقق هذه الوظيفة أثناء إسقاط المحور الاختياري على المحور التركيبي، وكذلك عندما يتحقق الانتهاك و الانزياح المقصود بشكل من الأشكال.

كما تهدف الرسالة عبر وسيط القناة إلى الحفاظ على التكلم، وعدم انقطاعه: (آلو....آلو...هل تسمعني جيدا؟....). أي: تهدف وظيفة القناة إلى تأكيد التواصل، واستمرارية الإبلاغ، وتثبيته أو إيقافه، والحفاظ على نبرة الحديث والكلام المتبادل بين الطرفين.

وينضاف إلى ذلك، أن للغة وظيفة مرجعية، ترتكز على موضوع الرسالة باعتباره مرجعا وواقعا أساسيا، تعبر عنه تلك الرسالة. وهذه الوظيفة في الحقيقة موضوعية، لا وجود للذاتية فيها، نظرا لوجود الملاحظة الواقعية، والنقل الصحيح، والانعكاس المباشر.... وثمة وظيفة أخرى مرتبطة باللغة تسمى الوظيفة الوصفية أو الوظيفة الميتالغوية القائمة على الشرح والوصف والتفسير والتأويل ، وتهدف هذه الوظيفة إلى تفكيك الشفرة اللغوية بعد تسنينها من قبل المرسل. والهدف من السنن هو وصف الرسالة لغويا، وتأويلها وشرحها وفهمها، مع الاستعانة بالمعجم أو القواعد اللغوية و النحوية المشتركة بين المتكلم والمرسل إليه.

ومن باب التنبيه، نحتكم ، هنا، إلى القيمة المهيمنة La valeur dominante كما حددها رومان جاكبسون،لأن نصا ما قد تغلب عليه وظيفة معينة دون أخرى، فكل الوظائف التي حددناها سالفا متمازجة، إذ قد نعاينها مختلطة بنسب متفاوتة في رسالة واحدة، حيث تكون الوظيفة الواحدة منها غالبة على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال. ومن هنا، تهيمن الوظيفة الجمالية الشعرية على الشعر الغنائي. في حين، تهيمن الوظيفة التأثيرية على الخطبة ، وتهيمن الوظيفة الميتالغوية على النقد الأدبي، وتغلب الوظيفة المرجعية على النصوص التاريخية، وتهيمن الوظيفة الانفعالية على النصوص الشعرية الرومانسية، وتغلب الوظيفة الحفاظية على المكالمات الهاتفية.

علاوة على هذا، فقد صنف رومان جاكبسون الصور البلاغية في قطبي الاستعارة والمجاز المرسل أو المشابهة والمجاورة، إذ وجد الشعر مرتبطا بالاستعارة. في حين، يتميز النثر بالمجاورة. بيد أن ميلر يعد النثر فنا استعاريا، فقد كان جي هلس ميلر التفكيكي الأمريكي«متأثرا إلى حد كبير بالنقد الظاهري كما في كتابه(الخيال والتكرار: سبع

روايات إنجليزية)(1982م). كما أنه كان مدينا لنظرية جاكبسون عن الاستعارة والكناية، بالرغم من أنه ، في الواقع ، يفكك معارضة الاستعارة الأصلية عند جاكبسون (والتي هي بالضرورة شعرية)، وكذلك الكناية (التي هي أساسا واقعية). ويحاول ميلر أن يبرهن على أن الشعر يقرأ في كثير من الأحيان كما لو كان واقعيا، إذ يمكن أن تكون الكتابة الواقعية خيالا. ولكن انتقد الكثيرون ميلر بسبب تلميحه بأن اللغة لا يمكنها أبدا أن تشير إلى العالم الفعلي.[69]»

ويمكن أن نشير أيضا إلى أن الكثير من النصوص الروائية الشاعرية تتقاطع فيها صور المشابهة مع صور المجاورة. لكن يبقى الشعر هو المحظوظ بصور التشبيه والاستعارة. في حين، يحظى السرد الأدبي بصور المجاورة، سواء أكانت مجازا مرسلا أم مجازا عقليا أم كناية.

وفي هذا النطاق نفسه، يَهْتَمُّ جيرار جنيت كالآخرين بدراسة الصور البلاغية كما في مقاله (البلاغة المقيدة أو المحدودة)[70] ، حيث يدرس فيها الصور البلاغية سيما الاستعارة و الكناية والمجاز المرسل في ضوء رؤية بلاغية جديدة.

2 – الاتجاه الأسلوبي (البلاغة أسلوب)

تعرف الأسلوبية (Stylistique) بأنها دراسة الأسلوب دراسة علمية، في مختلف تمثلاته اللسانية والبنيوية والسيميائية والهيرمونيطيقية[71]. وتعد الأسلوبية أيضا فرعا حديثا من فروع اللسانيات إلى جانب الشعرية والسيميائيات والتداوليات. وتهتم

---

69 – ديفيد كارتر: **النظرية الأدبية**، ترجمة: د.باسل المسالمه، دار التكوير للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة 2010م، ص:122-123.

70 - G.Genette :(La rhétorique restreinte) *Communications*, Année 1970 , Volume 16, *Numéro* 16 , pp.158-171.

71 – تعني الهيرمونيطيقا الشرح والتفسير والتأويل.

بوصف الأسلوب بنية ودلالة ومقصدية. ويعني هذا أنها تختلف عن البلاغة الكلاسيكية ذات الطابع المعياري التعليمي التي كانت تهتم بالكتابة والخلق والإبداع، وتجويد الأسلوب بيانا ودلالة وسياقا وزخرفة، وتقدم للكاتب الناشئ مجموعة من الوصفات الجاهزة في عملية الكتابة، وتنميق الأسلوب بلاغة وفصاحة وتأثيرا. ومن هنا، فإن الأسلوبية هي دراسة الأسلوب في مختلف تجلياته الصوتية والمقطعية والدلالية والتركيبية والتداولية. والآتي، أنها تهتم باستكشاف خصائص الأسلوب الأدبي وغير الأدبي، مع جرد مواصفاته المتميزة، وتحديد مميزاته الفردية، واستخلاص مقوماته الفنية والجمالية، وتبيان آثار كل ذلك على المتلقي أو القارئ ذهنيا ووجدانيا وحركيا. ويعني هذا كله أن الأسلوبية تهتم بالأجناس الأدبية وصيغ تأليف النصوص، والتركيز على الأساليب اللغوية الخاصة لدى مبدع ما، وتدرس أيضا أنواع الأساليب التي يستثمرها الكاتب.

هذا، وقد اشتقت الأسلوبية (Stylistique) في الثقافة الغربية من الكلمة اللاتينية (Stilus)، ومن الكلمة الإغريقية (Stylos)، ومن الكلمة الفرنسية أو الإنجليزية (Style). وتعني هذه المشتقات في دلالاتها الأصلية أداة الكتابة. وبعد ذلك، استخدمت الكلمة للدلالة على طريقة الكتابة أو فن الكتابة. ويعرف الأسلوب اصطلاحا بأنه «اختيار لغوي من بين بدائل متعددة، إذ إن الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه، ويشي بشخصيته، ويشير إلى خواصه»[72]. كما تهتم الأسلوبية باللغة الأدبية، وتعنى بعطائها التعبيري[73].

72 - د.صلاح فضل: **مناهج النقد المعاصر**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2002م، ص:89.

73 - بيير غيرو: **الأسلوبية**، ترجمة:منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري،حلب، سورية، ص:17.

وعليه، فالأسلوبية هي مقاربة منهجية نظرية وتطبيقية، يمكن تمثلها في الحقل الأدبي والنقدي لمقاربة الظواهر الأسلوبية البارزة التي تميز المبدع، وتفرده عن الكتاب والمبدعين الآخرين. ومن جهة أخرى، تنكب الأسلوبية ، بصفة خاصة، على دراسة الأجناس الأدبية، وسبر أدبية النصوص والخطابات والمؤلفات، ودراسة الوظيفة الشعرية، والتمييز بين الأساليب حقيقة ومجازا، وتعيينا وتضمينا، مع رصد الأشكال والبنى الأدبية والسيميائية، واستكشاف بلاغة النص، وتحديد المستويات اللسانية للخطاب من: صوت، ومقطع ، وكلمة، ودلالة، وتركيب، وسياق، ومقصدية، وربط كل ذلك بموهبة الفرد المبدع ، أو العمل على دراسة الأسلوب في ضوء المعطيات النفسية أو الاجتماعية.

ومن الأكيد أن موضوع الأسلوبية هو الأسلوب بصفة عامة، إلا أن الأسلوبية تطرح مواضيع أخرى للتداول والمناقشة والتحليل والدراسة. ومن بينها: موضوع الكتابة والصياغة، وموضوع التلفظ، وثنائية التعيين والتضمين، و ثنائية التقرير والإيحاء، وثنائية الاتساق والانسجام، وقضية الانزياح، وقضية المسافة الجمالية في علاقتها بتخييب أفق الانتظار، وقضية التجنيس الأدبي في ضوء المعايير الأسلوبية والشكلية، والاهتمام بأدبية النص الأدبي، ودراسة الوظيفة الشعرية ، ورصد الصور البلاغية، ودراسة نظرية أفعال الكلام، والعناية بثنائية اللفظ والمعنى، أو الدال والمدلول...

هذا، ومن يتتبع تاريخ الأسلوبية الغربية، فسيجدها قد مرت بمراحل عدة : مرحلة أسلوبية المؤلف أو الكاتب، مصداقا لما قاله بوفون: «الأسلوب هو الرجل نفسه»؛ ومرحلة أسلوبية النص التي تبلورت مع الأسلوبية البنيوية والسيميائية؛ ومرحلة أسلوبية القارئ مع ميشيل ريفاتير(M.Rifaterre). ويمكن الحديث – اليوم- عن أسلوبية السياق والمقام مع نظرية أفعال الكلام وتصورات التداوليين.

هذا، وقد ظهرت الأسلوبية - تاريخيا - في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على أنقاض البلاغة التقليدية التي استنفدت إمكانياتها التعليمية، فتحجرت مقاييسها المعيارية. ثم، أصبحت آفاقها المستقبلية مسدودة. لذلك، أعلن كثير من الدارسين موتها، كما فعل مؤخرا الناقد السعودي عبد الله الغذامي في كتابه (**النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية الغربية**)[74].

هذا، وقد نشأت الأسلوبية، باعتبارها بلاغة علمية جديدة، في أحضان الشكلانية الروسية والنقد الجديد، فاستلهمت تصورات الشعرية (Poétique)، ثم تمثلت مفاهيم اللسانيات بمختلف مدارسها، ثم استفادت مؤخرا من النظريات التداولية. وقد انتشرت الأسلوبية في مختلف الدول الغربية، كفرنسا، وروسيا، وألمانيا، وإيطاليا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية... وبعد ذلك، انتقلت الأسلوبية الغربية إلى الدول العربية عن طريق الترجمة، والمثاقفة ، والدرس الجامعي. وإن كان للعرب القدامى في الحقيقة أسلوبية متميزة أصيلة، قد سبقت بقرون كثيرة الأسلوبية الغربية، إلا أن الأسلوبية العربية الحديثة والمعاصرة تتسم بالنزعة التوفيقية بين الأسلوبية التراثية والأسلوبية الغربية المعاصرة.

وهكذا، يتبين لنا بأن الأسلوبية قد ارتبطت بالتفكير حول الأسلوب، وإن كان هذا التفكير قد بدأ منذ القرن السابع عشر الميلادي، حيث ظهر النقد الأسلوبي الذي يعنى بعملية الكتابة الجيدة بدراسة المؤلفات الكلاسيكية في ضوء تصورات معيارية وتعليمية. ومن جهة أخرى، فلقد اقترنت الأسلوبية، في الفترة نفسها، بقولة بوفون(Buffon) : «**الأسلوب هو الكاتب نفسه**». ويعني هذا أن

---

74 - د.عبد الله الغذامي: **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى سنة 2000م.

المبدع لابد أن يتميز في كتاباته الإبداعية والوصفية بأسلوب شخصي أصيل، يكون علامة دالة عليه[75]. ومن هنا، يتأكد لنا بأن الأسلوبية قد ظهرت قبل ظهور اللسانيات الحديثة من ناحية أولى، و تبلورت مع موت البلاغة المعيارية من ناحية ثانية، لتتحول في سنوات السبعين من القرن الماضي إلى بلاغة جديدة أو أسلوبية جديدة من ناحية ثالثة.

وعلى العموم، يمكن تحديد مجموعة من المراحل التي مرت بها الأسلوبية الغربية هي : مرحلة المؤلف، ومرحلة النص، ومرحلة القارئ، ومرحلة السياق التداولي.

3 – الاتجـاه الحجاجي (البلاغة حجاج وإقناع)

يهتم شايم بيرلمان (Chaïm Perelman) وأولبريخت تيتيكا (Lucie Olbrechts-Tyteca) بالبلاغة الجديدة، ويربطها بالحجاج والإقناع، متأثرا في ذلك بالفيلسوف اليوناني أرسطو. ومن ثم، لايرى بيرلمان أي فرق بين البلاغة والحجاج مادام هدفهما واحد هو الإقناع والتأثير على حد سواء. وأكثر من ذلك، فالبلاغة حجاجية بامتياز. ويعني هذا أن الصور البلاغية والمحسنات البديعية ذات وظيفة حجاجية ليس إلا. ومن ثم، يقترن اسم بيرلمان بالبلاغة الحجاجية. ومن أهم الكتب التي تعبر عن توجهاته البلاغية الجديدة كتابه (مختصر البلاغة) الذي ألفه بشراكة مع أولبريخت تيتيكا[76].

هذا، وقد اهتم بيرلمان بالخصوص بالخطاب أو ما يسمى عند أرسطو باللوغوس. وفي الوقت نفسه، كان يعنى بالإيتوس (القيم الفضلى) والباتوس (الأهواء والانفعالات) على حد سواء. ويعني

75-Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov : *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage* ,p.101.
76 - Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : *Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique*, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.

هذا أنه قد ركز على ثلاثة مرتكزات أساسية في الخطاب البلاغي، هي: اللغة (اللوغوس)، والمرسل (الإيتوس)، والمرسل إليه (الباتوس).

هذا، وقد اهتم بيرلمان مع تتيكا في كتابه (**المختصر في الحجاج**) بتاريخ البلاغة في ضوء بعدها الحجاجي. ويعني هذا أن بيرلمان قد أسس بلاغة جديدة هي بلاغة الحجاج. وقد انتشرت نظريته بشكل كبير في سنوات السبعين من القرن العشرين. ومن ثم، فقد بنى بيرلمان البلاغة المعاصرة على أسس حجاجية ومنطقية وفلسفية محضة، متأثرا في ذلك بأرسطو صاحب كتاب (**الريطوريقا/ البلاغة**). ويعني هذا أن بيرلمان قد تمثل المنهج الأرسطي في التعامل مع البلاغة في ضوء رؤية حجاجية إقناعية، مبتعدا عن تصورات أفلاطون الجدلية. وإن كانت البلاغة عند بيرلمان تطرح أكثر ما يطرحه أرسطو في كتابه (الريطوريقا). وينضاف إلى هذا، أن بيرلمان قد جدد البلاغة الغربية المعاصرة في ضوء آراء أرسطو ، مع إضافة تصورات حجاجية جديدة. أي: إن بيرلمان قد انطلق من أفكار أرسطو حول البلاغة شرحا وتوسيعا ومناقشة وتمطيطا. والآتي، أن بيرلمان يوجز فكرته حول البلاغة بأنها بمثابة برهنة استدلالية، أو فلسفة عقلانية للتميز بين الأفكار القيمة وغير القيمة ، وفرز الحجج الصائبة من الخاطئة. علاوة على ذلك، فإن أهمية نظريته الحجاجية تكمن في تبيان طبيعة العلاقة الكائنة بين البلاغة والمخاطب، سواء أكان فردا أم جماعة، إن تأثيرا وإن إقناعا. والغرض من ذلك كله هو كشف الزيف والوهم والمحتمل، والدفاع عن الحقيقة الصادقة.

ومن جهة أخرى، اهتم بيرلمان بالمرسل أو الخطيب الذي يستعمل اللوغوس للتأثير على المخاطب، لكن بيرلمان يرى أنه ليس من الضروري أن يخضع المتكلم المخاطب لرغباته وأهوائه وقناعاته، فيجعله يقتنع بخلاصة أفكاره، بل لابد أن يعلم بأنه إنسان حر، عليه أن يستخدم عقله وحججه لتقويم الأفكار المقدمة له، ولو كانت تعارض بشكل

من الأشكال أفكار المتكلم جملة وتفصيلا. ويعني هذا أن بيرلمان يؤمن بحرية الإقتناع والحجاج. فليس هناك إكراه أو إجبار في عملية الإقناع والتأثير. فالمخاطب حر على مستوى الاقتناع أو عدم الاقتناع. والجديد في طرح بيرلمان أن البلاغة الكلاسيكية بلاغة تعليمية ومعيارية وخطابية ومنطقية مطالبة بإقناع المتلقي بصحة أفكار المتكلم ترغيبا وترهيبا. لكن بيرلمان يرفض هذا التصور الجبري. ويرى أن البلاغة الجديدة تهدف إلى إقناع الآخرين بصحة أفكار المحاجج أو عدم الاقتناع بها، إذا كانت لاتتلاءم مع تصوراته ورغباته ورؤاه وقناعاته الذهنية والفلسفية.

وعلى العموم، ينبني تصور بيرلمان الحجاجي على تلك العلاقة التي تجمع بين المتكلم والمرسل إليه، وإن كان جديد بيرلمان هو التركيز على المخاطب ضمن رؤية استهوائية إقناعية وتأثيرية. بمعنى أنه ربط الحجاج بالمخاطب أكثر مما ربطه بالمتكلم واللوغوس. ومن ثم، فالبلاغة الحجاجية هي بلاغة غير شكلية (بلاغة ذاتية) مقارنة بالمنطق الصوري (بلاغة موضوعية). ومن ثم، أصبحت البلاغة الحجاجية حاضرة في المجتمعات السيميائية والديمقراطية، وأصبحت أداة مهمة لبناء المعرفة وفهم عمليات الإقناع والتأثير.

وإذا كان كثير من الدارسين، مثل: رولان بارت وجماعة مو، قد فشلوا حينما بحثوا عن آليات البلاغة القديمة من أجل إغناء السيميولوجيا، فإن بيرلمان قد نجح في ذلك كل النجاح، حينما بنى بلاغة حجاجية تهدف إلى الحكم على الحجج والأفكار والقيم في ضوء فلسفة عقلانية، بعيدا عن قواعد المنطق الجافة.

ويعني هذا أن الفكر الإنساني ليس دائما برهانيا واستدلاليا. فقد نجد أفكارا غير منطقية، ولكنها تحمل في طياتها ما هو حجاجي، كما هو حال الجمالي أوالفني الذي يقوم على وظائف حجاجية بامتياز. ويعني هذا أن حجاجية بيرلمان ذاتية ومتغيرة، مادام تركز على الذوات على عكس حجاجية بيرس (Peirce)، فهي منطقية وفلسفية تتعامل

بموضوعية مع العلامات والرموز والإشارات والأيقونات التي تتخذ طابعا ثابتا. ومن ثم، يهتم بيرلمان بالعلاقات اللغوية التي تكون بين المرسل والمتلقي من خلال مراعاة القصد والمقام والسياق ، سواء أكان سياقا داخليا أم خارجيا.

وإذا كانت الدراسات البلاغية السابقة (دومارسيه، وفونتانيي، ورولان بارت، ورومان جاكبسون، وجماعة مو) قد تعاملت مع البلاغة من زاوية نحوية أو لسانية بنيوية من خلال دراسة الصور دراسة معيارية أو وصفية، فإن بيرلمان قد درس البلاغة في ضوء رؤية حجاجية محضة، من خلال التركيز على مكونات بلاغية ثلاثة: اللوغوس(اللغة) والإيتوس (القيم) والباتوس(الأهواء)، وقد بين بيرلمان بأن الصور البيانية هي ذات وظيفة حجاجية . والآتي، أن البلاغة قد غدت – اليوم- علم الخطاب بامتياز.

وعليه، ينظر بيرلمان إلى الحجاج من وجهة بلاغية ، مركزا على المخاطب واللغة التي يستخدمها المتكلم لإقناع المتلقي نحويا ومعجميا، بغية الوصول إلى الحقيقية عبر البرهنة والاستدلال، سواء اقتنع بذلك المتلقي أم لم يقتنع . ومن ثم، تسعى البلاغة الحجاجية عند بيرلمان إلى استكشاف آليات الحجاج عبر التوقف عند الدعوى والأفكار المعارضة، واستخدام الأدلة والبراهين والحجج ، والإشارة إلى الأفكار المشتركة التي يتفق فيها المرسل والخطيب، واستحضار الخطاطات الحجاجية، واستعراض عمليات الاستنباط والاستقراء وخطوات الإقناع والتأثير على حد سواء. وقد اختار بيرلمان الخطاب القضائي أو الاستشاري نموذجا دراسيا للتطبيق، باستعراض مختلف الحجج والحجج المضادة والتجارب التي تطرح في هذا النوع من الحجاج الذي يهدف إلى ممارسة التأثير الذاتي، والإقناع الموضوعي..

وخلاصة القول، لايمكن الحديث عن بلاغة تقليدية نظرية عند بيرلمان، كماهي عند شيشرون (Cicéron) أو كينتيليان(Quintilien)،

بل هي بلاغة حجاجية تداولية تطبيقية، تستنمد آلياتها التطبيقية من المنطق القضائي أو الاستشاري، مع تخليصها من طابعها اللفظي أو اللغوي. ومن ثم، يمكن القول بأن حجاجية بيرلمان رمز للحرية. أي: حرية التعبير، واحترام الحق، وتمثل العقلانية القضائية، والسعي الدائم نحو إثبات الحقيقة. ومن ثم، فالبلاغة الحجاجية ليست فقط مجرد آليات إجرائية لإقناع الآخرين، وإفحام الخصوم، بل هي طريقة فضلى نسلكها من أجل الوصول إلى الحقيقة الثابتة الصادقة.

وأخيرا، إذا كان ديكاريت يرى أن العقل أو المنطق هو المسلك الحقيقي لاكتشاف الحقيقة الثابتة الصادقة واليقين البديهي ، فإن بيرلمان يرى بأن البلاغة الجديدة ذات التوجه الحجاجي هي السبيل لتحصيل الحقيقة المثلى.

4 – الاتجـــاه السـيميائي (البلاغة في خدمة السيمياء)

يعتبر رولان بارت R.Barthes خير من يمثل هذا الاتجاه ، لأن البحث السيميولوجي لديه هو دراسة الأنظمة الدالة، فجميع الأنساق والوقائع تدل، فهناك من يدل بواسطة اللغة، وهناك من يدل بدون اللغة السننية، بيد أن لها لغة دلالية خاصة بها. ومادامت الأنساق والوقائع كلها دالة، فلا عيب من تطبيق المقاييس اللسانية والبلاغية على الوقائع غير اللفظية. أي: أنظمة السيميوطيقا غير اللسانية لبناء الطرح الدلالي. ومن هنا، فقد انتقد بارت في كتابه (عناصر السيميولوجيا) الأطروحة السوسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في قلب السيميولوجيا ، مبينا أن اللسانيات ليست فرعا ولو كان مميزا، من علم الدلائل (السيميولوجيا)، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات.[77]

---

77 – عواد علي: معرفة الآخر، *مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1990م، ص : 96 .

ومن هنا، فقد تجاوز رولان بارت تصور الوظيفيين الذين ربطوا بين العلامات والمقصدية، وأكد وجود أنساق غير لفظية، حيث التواصل غير إرادي، ولكن البعد الدلالي موجود بدرجة كبيرة. وتعتبر اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل هذه الأنساق والأشياء غير اللفظية دالة، حيث إن كل«المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة، ذلك أن الأشياء تحمل دلالات. غير أنه ماكان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالة لولا تدخل اللغة، ولولا امتزاجها باللغة. فهي، إذاً، تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة. وهذا ما دفع بارت إلى أن يرى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة؛ بحيث إن إدراك ماتدل عليه مادة ما يعني اللجوء، قدريا، إلى تقطيع اللغة؛ فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة.»[78]

أما عناصر سيمياء الدلالة لدى بارت، فقد حصرها في كتابه(عناصر السيميولوجيا) في الثنائيات البنيوية التالية: ثنائية الدال والمدلول، وثنائية التعيين والتضمين، وثنائية اللسان والكلام، وثنائية المحور الاستبدالي والمحور التركيبي. وقد حاول بارت بواسطة هذه الثنائيات اللسانية مقاربة الظواهر السيميولوجية، كأنظمة الموضة، والأساطير، والطبخ، والأزياء، والصور، والإشهار، والنصوص الأدبية، والعمارة، إلخ...

وأخيرا، يمكن للمقاربة النصية والخطابية في بعدها السيميوطيقي أن تستعين بثنائيات بارت اللسانية والبلاغية، بغية البحث عن دلالة الأنساق اللفظية وغير اللفظية في الأنشطة البشرية والنصوص الإبداعية الأدبية والفنية.

78 - د.حنون مبارك: *دروس في السيميائيات*، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى سنة 1987م، ص: 74.

ويعني كل هذا أن رولان بارت من الدارسين الغربيين الأوائل الذين سارعوا إلى تطبيق البلاغة، وخاصة ثنائية التقرير والإيحاء، على الأنظمة السيميولوجية غير اللفظية، مثل: الموضة ، والطبخ، والإشهار، والأزياء، والصور، والموضة... بل يعد من أهم الدارسين للصورة الإشهارية في الغرب على المستوى السيميائي والبلاغي، سيما في دراسته (بلاغة الصورة الإشهارية)[79]. وقد ارتأى أن دراسة الصورة تستوجب التركيز على دراسة الرسالة اللغوية، والصورة التقريرية، وبلاغة الصورة[80]. وقد خصص الإشهار بدراسات قيمة كما في كتابه (عناصر السيميولوجيا)[81]، وكتاب (المغامرة السيميولوجية)[82]...

ومن المعلوم أن الصورة الإشهارية خطاب استهوائي وإيحائي وإقناعي، يتألف من ثلاثة خطابات أساسية: الخطاب اللغوي اللساني، والخطاب البصري الأيقوني، والخطاب الموسيقي الإيقاعي. ويتضمن أيضا ثنائية : الدال والمدلول ، ويتكون كذلك من ثلاثة عناصر تواصلية: العنصر الأول هو المرسل (الدولة، والأفراد المنتجون، والشركات والمقاولات الإنتاجية، والمؤسسات المروجة اقتصاديا وخدماتيا...)، والعنصر الثاني هو الرسالة الإشهارية التي تتكون من الدال والمدلول، والعنصر الثالث هو المتلقي أو الجمهور.

علاوة على ذلك، تتضمن الرسالة الإشهارية ثنائية التعيين والتضمين، أو ثنائية التقرير والإيحاء. أي: إن هناك رسالتين

---

79 - انظر: رولان بارت: *المغامرة السيميولوجية*، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار تينمل للطباعة والنشر،مراكش، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1993م، ص:29 وما بعدها.

80 - قدور عبد الله ثاني: *سيميائية الصورة*، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2007م، ص: 39.

81 - رولان بارت: *مبادئ في علم الأدلة*، ترجمة: محمد البكري، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.

82 - انظر: رولان بارت: نفسه، ص:29 وما بعدها.

متداخلتين ومتقاطعتين: رسالة تقريرية حرفية إخبارية في مقابل رسالة تضمينية وإيحائية. ويعني هذا أن هناك رسالة مدركة سطحيا ورسالة مقصدية مبطنة. وإذا أخذنا على سبيل المثال: «جبنة البقرة الضاحكة» (La vache qui rit)، فإنها تحتوي على مدلولين أو رسالتين : الرسالة الأولى سطحية إخبارية تقريرية تعتمد على الاستعارة والتشخيص البلاغي ، تبين لنا بأن الجبنة الحيوانية أساس تغذية صحية متكاملة . بيد أن الرسالة الثانية تحمل مدلولا ثاويا وعميقا تؤشر على مقصدية إيحائية تتمثل في جودة المنتوج المعلن عنه، وأنه من الأفضل شراؤه ، واقتناؤه ، واستهلاكه. أي: تقول لنا الرسالة الإشهارية الإيحائية: « أيها المستهلكون جميعا: اشتروا البضاعة، فإنها رائعة وجيدة».

وتصاغ الصورة الإشهارية بطرائق أسلوبية عديدة ومتنوعة كالتشبيه، والاستعارة، والتشخيص، والأيقون، والمجاز، والكناية، والرمز، والأسطورة، والسجع ، والتورية، والجناس، والطباق، والمقابلة، والتكرار، والتوازي، بالإضافة إلى تقطيع الجمل نبرا وتصويتا و إيقاعا وتنغيما ولحنا... ويتضح لنا بأن الرسالة الأولى في الصورة الإشهارية بكاملها « تكون دال الرسالة الثانية. لذلك، يقال: إن الرسالة الثانية توحي بالأولى. نكون، في هذه الحالة، إذاً، بصدد بنية رسائل : إن الرسالة الأولى، والمكونة من اجتماع دوال ومدلولات، تغدو مجرد دال للرسالة الثانية، وفق عملية تقليص؛ بما أن عنصرا واحدا من الرسالة الثانية (دالها) يسع الرسالة الأولى بكاملها. »[83]

هذا، وإذا كانت رسالة الإشهار الأولى صريحة، فإن رسالته الثانية إيحائية. ومن ثم، تتسم الصورة الإشهارية بعدة سمات ومكونات كالنفعية، والمجانية، والحدة الإلزامية، والتأرجح بين التصريح والإيحاء، وتشغيل بلاغة اللسان والصورة، والتركيز على المقصدية

83 – انظر: رولان بارت: نفسه، ص:30 .

الإقناعية والتأثيرية، علاوة على خاصية الدعاية والإعلان، وخاصية التحفيز، والتشديد المضاعف على الرسالة... وكل هذا من أجل تحقيق تواصل بين القارئ والموضوعات البشرية الكبرى، بغية تحقيق المتعة واللذة، وبناء عوالم حلمية ممكنة على أساس التحفيز والتملك والاقتناء والاستهلاك.[84]

والآتي، أنه لا يمكن للصورة الإشهارية أن تحقق النجاح إلا بتجويد الصورة ، والتوفيق بين الدلالة التقريرية التصريحية والدلالة المقصدية الإيحائية. وفي هذا الصدد ، يقول رولان بارت:« إن الرسالة التقريرية... هي التي تتحمل، إذا جاز لي القول، المسؤولية الإنسانية عن الإشهار: إن كانت جيدة نجح الإشهار، وإن كانت رديئة فشل. ولكن ما معنى أن تكون رسالة إشهارية ما جيدة أو رديئة؟ إن القول بفعالية شعار ما، ليس معناه تقديم جواب ، لأن سبل هذه الفعالية تبقى غير أكيدة: يمكن لشعار ما أن يغري دون أن يقنع ، لكن يمكنه، مع ذلك، أن يدفع إلى الشراء عن طريق هذا الإغراء وحده. ويمكننا القول، مستندين إلى الصعيد اللغوي للرسالة، إن الرسالة الإشهارية الجيدة هي تلك التي توجز في ذاتها بلاغة غنية جيدة، وتطرق بدقة، وبكلمة واحدة في الغالب، الموضوعات الحلمية الكبرى للبشرية ، محدثة ذلك التوسيع الكبير للصور الذي يميز الشعر نفسه. وبعبارة أخرى، تكون معايير اللغة الإشهارية هي نفس معايير الشعر: صور بلاغية، واستعارات، وتلاعب بالكلمات. كل هذه الأدلة المذكورة، وهي أدلة مضاعفة، توسع من مجال اللغة ليشمل مدلولات مستترة، بل إنها لتمنح، بذلك الإنسان الذي يتلقاها، القدرة على خوض تجربة كلية. وبكلمة واحدة، بقدر ما تكون العبارة الإشهارية مزدوجة بقدر ما تكون متعددة، فإنها تنجز وظيفتها بصورة أفضل كرسالة إيحائية.»[85]

---

84 – رولان بارت: نفسه، ص:33 .

85- رولان بارت: نفسه، ص:33-34 .

هذه هي أهم المكونات الأساسية التي تنبني عليها الصورة الإشهارية سيميائيا وبلاغيا، فضلا عن مكونات تداولية كالمرسل، والرسالة، والمتلقي، والقناة ، واللغة، والمرجع ، والأيقون. ولكل عنصر وظيفة معينة كالوظيفة التعبيرية، والوظيفة الجمالية، والوظيفة التأثيرية، والوظيفة الحفاظية، والوظيفة الوصفية، والوظيفة المرجعية، والوظيفة الأيقونية.

وما يلاحظ على الصورة الإشهارية بالخصوص أنها صورة سيميائية خادعة، وعلامة لسانية مضللة للمتلقي بسبب اعتمادها على خطاب التضمين والإيحاء، وتجاوز التعيين، والارتكان إلى ثنائية الحافز والاستجابة، والخضوع للمتطلبات الإيديولوجية وشروط البرجماتية الاقتصادية. ويستوجب هذا من المتقبل أن يكون واعيا ومتنورا قادرا على النقد، وممارسة السؤال، وقراءة الرسائل الثاوية والعميقة، وتفكيك لغة الصورة جيدا، وتشريحها سطحا وعمقا. كما تحمل الصورة الإشهارية بطبيعة الحال نوايا المرسل، وتقدم رؤيته للعالم، وتعمل جاهدة للتأثير على القارئ ، وإقناعه، واستهوائه. وقد صدق روبير كيران Robert Guerin حينما قال:«إن الهواء الذي نستنشقه مكون من الأكسجين والنتروجين والإشهار».[86]

وتساهم الصورة الإشهارية كذلك، بكل دوالها ومدلولاتها الإيحائية، في استلاب الإنسان المتلقي، وتحويله إلى آلة استهلاكية مستقبلة ليس إلا.

وإلى جانب رولان بارت، يمكن الحديث عن بلاغي آخر هو جان ماري كلانكينبرج[87] الذي يعتبر من أهم الدارسين الذين حاولوا الربط

---

86 - فيصل الأحمر: **معجم السيميائيات**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى 2010م، ص:114.

87- Klinkenberg, J-M. M : *Précis de sémiotique générale*. Bruxelles : De Boeck.1996.

بين السيميوطيقا والبلاغة، وإيجاد علاقات وأوجه التقارب والتشابه بينهما تصورا ومنهجا وتطبيقا، إلى جانب جماعة مو (Groupe µ) التي كرست كل جهودها النظرية والتطبيقية لخدمة الشعرية أو البويطيقا (Poétique) ، سواء أكنت شعرية لسانية أم بصرية. ومن ثم، تشكل البلاغة جزءا إبداعيا من النظام السيميوطيقي الدلالي والاجتماعي والسياقي والمعرفي. بمعنى أن البلاغة تشكل المولد الديناميكي للوحدات الكلامية والإبداعية أداء وإنجازا وسياقا. في حين، تشكل السيميوطيقا الجهاز الوصفي الثابت الذي يعمل على رصد العلاقات البنائية، ويبحث عن المضمرات التوليدية التي تتحكم في إنتاج الخطابات سطحا وتمظهرا.

وإذا كانت السيميوطيقا تهتم بالجانب المعرفي الثابت من اللغة، فإن البلاغة تهتم بالجانب الإنجازي والأدائي من الكلام. بمعنى أن البلاغة ذات طابع أدائي وتداولي وسياقي في ارتباطها بالمجتمع، وتتلون في مقاصدها بتنوع السياقات المرجعية والإحالية. وما أحوج السيميوطيقا اليوم إلى الانفتاح على البعد المرجعي والسياقي! و قد ألح على ذلك بول ريكور كثيرا حينما دعا إلى الجمع بين الفهم والتفسير والتأويل، مع استحضار الذات والواقع والمقصدية السياقية!

ومن المعروف أيضا أن شارل موريس كان سباقا إلى طرح البعد التداولي، حينما حصر المنهجية السيميوطيقية في مستويات ثلاثة: المستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، والمستوى التداولي. بمعنى أن العلامات السيميائية لا تتخذ بعدها الدلالي إلا في انتظامها داخل بنيات تركيبية ودلالية وسياقية. وقد اشتغلت جماعة مو كثيرا على هذه التصورات من خلال الجمع بين هذه المستويات المنهجية، والانفتاح على اللسانيات اللغوية والبصرية، ودراسة علاقة النص

بالصورة الأيقونية والتشكيلية [88]. وهذا ما دفع جان ماري كلانكينبرج إلى تمثل المقاربة البلاغية في دراسة الصور التشكيلية والصور الأيقونية في كثير من دراساته اللسانية والسيميائية، سيما دراساته التي حلل فيها علاقة الصورة بالنص الأدبي. أي: لقد اهتم جان ماري بإبراز العلاقات الموجودة بين البلاغة والسيميوطيقا العديد من الأبحاث الفردية والجماعية مع جماعة مو لمدة أربعين سنة. ومن جهة أخرى، فقد انشغل جان ماري كلانكينبرج كثيرا بالمفاهيم اللسانية، وخاصة المفاهيم السوسيرية منها، كالدال والمدلول، واللغة والكلام، واللسانيات والسيميائيات، والمستوى التأليفي والمستوى الاستبدالي، وثنائية السانكرونية والدياكرونية، وثنائية التضمين والتعيين، أو التقرير والإيحائية، وثنائية الشكل والمضمون. كما اهتم كذلك بالخطاب في أبعاده المنهجية ومستوياته اللسانية: الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية، والبلاغية، ودراسة البلاغة عن طريق التركيز على الصور البيانية، والمحسنات البديعية، والحجاج التأثيري والإقناعي.

وهكذا، يرى جان ماري كلانكينبرج أن البلاغة فن الكلام، وليس فن اللغة. ويعني هذا أن السيميوطيقا مرتبطة باللغة. في حين، ترتبط البلاغة بالكلام والبعد الإنجازي التداولي البراجماتي. ويعني هذا أن البلاغة شقيقة البراجماتية بشكل وثيق، مادامتا قائمتين على الكلام والإنجاز والأداء وأفعال الكلام. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن البلاغة نظام إبداعي ديناميكي تداولي، بينما السيميوطيقا نظام وصفي ثابت، يهتم بوصف الأنظمة اللسانية وغير اللسانية وصفا وتقعيدا وتنظيرا، بغية البحث عن الأنظمة الثابتة المضمرة التي تتحكم في توليد الدلالة والبعد التواصلي. ومن ثم، فالبلاغة مقاربة اجتماعية

88 -Groupe μ : *Traité du signe visuel. Pour une rhétorique de l'image*. Paris : Seuil.1992.

ومقامية تنبني على نظرية الأفعال الكلامية في سياقها الحواري والإنجازي. والآتي، أن البلاغة ترتبط بالتحولات المجازية والإيحائية، وترصد مجمل الانزياحات الصوتية والبصرية والدلالية والتركيبية والإيقاعية من خلال انتهاكها للمعايير المألوفة والمتداولة. أما عن السبب وراء اهتمام جان ماري كلانكينبرج بالبلاغة والسيميوطيقا فهو انتماؤه إلى جماعة مو التي اهتمت خصوصا بآليات الشعرية أو البويطيقا ، حيث ركزت كثيرا على الصور البلاغية والحجاج من خلال الاستعانة بالبنيوية واللسانيات والسيميائيات، مع الاستفادة من أفكار فرديناند دوسوسير، وبيرس، ورومان جاكبسون، ورولان بارت، وكريماص، وأمبرطو إيكو...

وقد اهتمت جماعة مو بالبلاغة العامة بواسطة الانفتاح على مجموعة من المقاربات المتعددة الاختصاصات: اللسانيات، وسوسيولوجيا الثقافة، والفلسفة، والبيوكيمياء، وعلم الجمال، وتاريخ السينما... كما اعتنت بدراسة الصور البلاغية المختلفة داخل نصوص لغوية معينة، وخطابات بصرية مختلفة ، في ضوء رؤية معرفية نسقية، ومنهجية سياقية تداولية تنبني على تجريد الأنظمة الخطابية، واستكشاف التفاعلات السياقية البراجماتية، مع الاهتمام بالصورة الأيقونية والتشكيلية الثابتة أو الصورة السينمائية المتحركة. ويعني هذا كله أن جماعة مو هدفها الرئيس هو تأسيس سيميوطيقا بلاغية عامة وخاصة بغية معرفة أنظمة اللغة والكلام معرفيا وسياقيا.

وينضاف إلى ذلك، أن جان ماري كلانكينبرج من أهم المؤسسين للسيميوطيقا البصرية أو البلاغة المرئية التي تعد جزءا من السيميوطيقا العامة ، وهي سيميائية تهتم بدلالة الصورة، مع رصد بعدها التواصلي والسياقي والوظيفي. ومن ثم، فهو يدرس الصور البصرية ونصوصها الموازية والمجاورة، من خلال التشديد المنهجي على البعد المعرفي

والبعد التداولي. وقد اعتمد جان ماري كلانكينبرج في ذلك على رولان بارت الذي أعد دراسة قيمة تحت عنوان (بلاغة الصورة) سنة 1964م. وتعد هذه الدراسة رائدة من نوعها في مجال السيميوطيقا البصرية، مستعملا في ذلك ثنائية التضمين والتعيين، لاسيما في دراسته للصور الإشهارية والتشكيلية والأيقونية على حد سواء. ونستحضر من بين هذه الدراسات السيميائية التطبيقية دراسته التحليلية المشهورة للصورة الإشهارية المتعلقة بعجائن بانزاني (Panzani). وبالتالي، لم تتحقق سميأة الصور البصرية والمرئية بطريقة علمية، وتصنيفها بطريقة تجريبية، إلا مع الباحث السيميائي أبراهام مول(Abraham Moles) سنة 1978م. وبهذا، يكون رولان بارت وأبراهام مول وأعضاء جماعة مو من المؤسسين الفعليين للسيميوطيقا البصرية أو المرئية ذات الطابع البلاغي. وقد ساهم جان ماري كلانكينبرج، ضمن دراساته السيميائية والبلاغية التي خصصها للصورة والأيقون والكتابة الخطية، في بلورة سيميوطيقا بصرية أو بلاغة مرئية متميزة، ترصد التفاعلات الموجودة بين النص والصورة، من خلال الاعتماد على اللسانيات والبلاغة والسيميوطيقا، بغية تفسير ماهو بصري وأيقوني وتشكيلي وإشهاري.

5 – الاتجاه التداولي (البلاغة أفعال كلامية واستلزام حواري):

لقد ربط الاتجاه التداولي البلاغة الجديدة بأفعال الكلام تقريرا وإنجازا، فالنص الأدبي ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأقوال والأحاديث، بل يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي من خلال ثنائية: افعل ولا تفعل[89]. ويعني هذا أن الخطاب أو النص الأدبي

89 -Catherine kerbrat-Orrecchioni: *Enonciation de la subjectivité dans le langage*, Paris, Armand Colin, 1980, p.181.

في مفهوم التداوليات التحليلية التي ظهرت في سنوات الخمسين من القرن العشرين مع أوستين، كما في كتابه(**نظرية أفعال الكلام**) (1962م)[90]، وسورل في كتابه (**أفعال اللغة**) (1969م)[91]،عبارة عن أفعال كلامية تتجاوز الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تنبني على ثلاثة عناصر رئيسة، وهي: أولا، فعل القول ويراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة سليمة التركيب، وذات دلالة، تحمل في طياتها حمولات قضوية وإخبارية. وبالتالي، تشتمل على مستوى صوتي وتركيبي ودلالي، مثل: «**أشكرك ياعلي**». وثانيا، الفعل المتضمن في القول، وهو الفعل الإنجازي الذي يحدد الغرض المقصود بالقول، كصيغة الأمر في هذه الجملة: «**انتظري اللحن الجديد**». وثالثا، الفعل الناتج عن القول، وهو ما ينتج عن القول من آثار لدى المخاطب إثر فعل القول، كإقناع المخاطب، وحثه، وإرشاده، وتوجيهه، أو تضليله... وتحضر هذه المستويات الثلاثة للفعل الكلامي جميعها في الوقت ذاته، و بدرجة متفاوتة، وهي التي تجعل هذا الفعل الكلامي كاملا.

وعلاوة على ذلك، يميز أوستين بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية، وتتنوع هذه الأقوال الإنجازية إلى أقوال ظاهرة وأقوال مضمرة. فالأقوال الإنجازية قد تكون لها قوة حرفية ، مثل: الاستفهام، والتمني، والأمر... وقد تكون لها قوة إنجازية حوارية وسياقية، مثل: الالتماس، والإرشاد، والتهديد، والتحسر، ...

ويعني هذا كله أن الفعل الكلامي ينقسم إلى ثلاثة أنواع: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول، وقد لايدل الفعل المتضمن في القول على دلالته المباشرة، بل يفيد معنى

90 - J.L.Austin: *Quand dire, c'est faire*, Editions du seuil, Paris, 1970.
91 - John R.Searle: *les actes de langage*, Collection, savoir Herman, Paris, 1972.

إنجازيا آخر غير مباشر يحدده سياق القول. بتعبير آخر، للجملة الواحدة ثلاثة مستويات: محتواها القضوي وهو مجموع معاني مفرداتها، والقوة الإنجازية الحرفية وهي قوة مدركة مقاليا، والقوة الإنجازية المستلزمة وهي التي تدرك مقاميا. ويعني هذا أن أوستين يربط الأقوال بالأفعال، والمقال بالمقام. فأن نقول كلاما، يعني أننا ننجز فعلا. ومن هنا، فنظرية الأفعال الكلامية تنبني على فعل القول (قول شيء ما) الذي يتخذ مظهرا صوتيا وتركيبيا ودلاليا، والفعل المتضمن في القول (إنجاز فعل معين ضمن قول ما)، وقد يكون فعلا مباشرا أو غير مباشر، والفعل الناتج عن القول(الآثار المترتبة عن قول شيء ما). ويتميز الفعل الكلامي بالمطابقة مع الواقع والسياق، والتعبير عن حالة نفسية، والقدرة على الإنجاز، واختلافه باختلاف منزلة المتكلم من المتلقي، والاختلاف في أسلوب الإنجاز، واختلاف القوة الإنجازية...[92]

ويمكن تقسيم أفعال الكلام حسب مايقصد بها من أغراض إنجازية إلى:

1 - **التقريريات:** وتفيد تأكيد المتكلم وإقراره لبعض الوقائع والأحداث في الواقع الخارجي، مثل: «إنني كاتب وناقد وفيلسوف».

2 - **الطلبيات أو الأمريات:** وتحضر في توجيه المتكلم طلبا للمخاطب لإنجاز فعل ما، مثل: «هل سيسافر أحمد غدا؟»، و«اخرجوا كلكم من مدرج الكلية».

3 - **البوحيات أو الإفصاحيات:** تعبر عن الحالة النفسية للمتكلم، مثل:«أحب أن أراك سعيدا»، و« مللت الانتظار».

4 - **الوعديات** : تفيد التزام المتكلم بإنجاز فعل في الزمان المستقبل، مثل:» أعدك بسفر رائع إلى مصر».

---

92 - راجع : جون أوستين: ***نظرية أفعال الكلام العام***، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.

5 - **التصريحات** : ويقصد بها إعلان المتكلم عن إنجاز فعل يفيد تغييرا مرتقبا على مستوى العالم الخارجي، مثل:« أعلن أيها الحضور الكريم عن برنامجي الانتخابي قريبا».

وعليه، يعمد الناقد في المقاربة التداولية حين التعامل مع النص الأدبي إلى استخلاص الأفعال الكلامية أو الجمل الإنشائية أو الخبرية، وتصنيفها إلى الأفعال القضوية، والأفعال الإنجازية الخبرية، والأفعال السياقية، وتصنيف الجمل الأدبية حسب سياقها ومقامها الوظيفي والتداولي والمقصدي.

ومن جهة أخرى، ترى المقاربة التداولية والوظيفية بأن النص أو الخطاب الأدبي استلزام حواري وإنجازي. وهنا، نتحدث بطبيعة الحال عن الدلالات الصريحة والضمنية. فالاستلزام الحواري يتعلق بالدلالات البلاغية الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ومن ثم، يرتبط الاستلزام الحواري بنظرية الأفعال كما هي عند أوستين وسورل. أي: ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حواري استلزامي غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أوالسياق التداولي. وللتوضيح أكثر: قد تكون معاني العبارات اللغوية صريحة، وقد تكون ضمنية. فالمعاني الصريحة هي التي تحمل محتوى قضويا، وتتوفر على القوة الإنجازية الحرفية. فهذا معنى مباشر صريح. أما المعنى الضمني فينقسم بدوره إلى قسمين: معنى عرفي يتعلق بالاقتضاء (الإحالة)، والاستلزام المنطقي(الدلالة المنطقية)، ومعنى حواري ينقسم كذلك إلى معنى خاص(الاستلزام الحواري)، ومعنى معمم. وينتج عن كل هذا وجود أنماط من الأفعال حسب أوستين، وهي: فعل التلفظ، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، والفعل التأثيري. ويشمل فعل التلفظ الفعل الصوتي والفعل التركيبي.أما الفعل القضوي، فيتفرع إلى الفعل الإحالي والفعل الحملي. أما الفعلان الإنجازي والتأثيري،

فلايختلفان في مقترح سيرل عنهما في مقترح أوستين كبير اختلاف. وقد اقترح سيرل كذلك أفعالا أخرى انطلاقا من نظرية الأفعال اللغوية، وصنفها في خمسة: الأفعال الحكمية(تمثل الواقع صدقا أو كذبا)، والأفعال الأمرية، والأفعال الالتزامية، والأفعال التعبيرية، والأفعال الإنجازية. بيد أن سورل يركز فقط على فعلين رئيسين، وهما:الفعل القضوي ، والفعل الإنجازي.

هذا، وإذا انتقلنا إلى النص الأدبي لتحليله تداوليا، نقوم بتصنيف العبارات اللغوية ، سيما البلاغية منها خبرا كانت أم إنشاء، إلى عبارات صريحة المعنى، فنحدد أفعالها القضوية، ثم تبيان قوتها الإنجازية الحرفية. وبعد ذلك، ننتقل إلى استكشاف المعاني الضمنية، سواء أكانت اقتضائية إحالية أم عرفية أم منطقية. ومن ثم، ننتقل إلى الاستلزام الحواري باستكشاف المعاني الإنجازية السياقية والمقامية، سواء الخاصة منها أم العامة. ويمكن الاستعانة بالمفاهيم التي تنبني عليها التداوليات الوظيفية لاستخلاص المعاني الاستلزامية السياقية والمقامية، من خلال التركيز على الأدوار التركيبية النحوية، والأدوار الدلالية، والأدوار التداولية. فضلا عن ذلك، يمكن تصنيف أفعال النص الأدبي إلى أفعال تلفظية، وأفعال قضوية، وأفعال اقتضائية، وأفعال عرفية، وأفعال إنجازية حرفية، وأفعال إنجازية سياقية، إلخ...

6 – امتـــدادات البلاغة أو إمبراطورية البلاغة

لقد أصبحت البلاغة - حسب الفيلسوف الألماني والتر جينز (Walter Jens)- ملكة العلوم الإنسانية قديما وحديثا أو هي إمبراطورية منفتحة على مجموعة من المعارف والتخصصات. وتعد أيضا نظرية عامة للحجاج والتواصل حسب أوليفيه ريبول(Olivier Reboul) وشايم بيرلمان (Chaïm Perelman).

ويعني هذا أن البلاغة قد أصبحت في قرننا هذا مدخلا أساسيا إلى جميع المجالات العلمية والمعرفية والثقافية والأدبية والفنية، بعد أن

تعددت المعارف الإنسانية، وكثرت التخصصات العلمية، وتداخلت العلوم فيما بينها. بيد أنها جميعا تنطلق من منبع واحد هو البلاغة. و قد تطور تحليل الخطاب في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة منذ الستينيات من القرن العشرين، مستثمرا مفاهيم البلاغة وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة واللسانيات وعلم التواصل. ومن ثم، فقد حظيت البلاغة بمكانة كبرى بين أخواتها من المعارف والتخصصات والعلوم ، وصارت منهجية إجرائية لا يمكن الاستغناء عنها في تحليل مختلف الخطابات كالخطاب الديني، والخطاب السياسي، والخطاب الفلسفي، والخطاب اللغوي، والخطاب الأدبي، والخطاب الفني، والخطاب الاجتماعي، والخطاب العلمي...

وفي هذه الفترة بالذات، بدأت مجموعة من التخصصات تتكئ على البلاغة في أداء مهامها الوظيفية والمعرفية، مثل: علم النفس، وعلم الاجتماع ، والفن، والأدب ، واللسانيات، والفلسفة، والقانون، والسياسة، والثقافة، والتاريخ، والتكنولوجيا الرقمية...باعتبارها أم العلوم والمعارف والتخصصات.

وهكذا، يتبين لنا بأن البلاغة قد عرفت مرحلتين: مرحلة البلاغة الكلاسيكية ذات الطابع المعياري التعليمي، ومرحلة البلاغة الجديدة التي اتخذت طابعا وصفيا. ومن ثم، يمكن الحديث عن أنواع عدة من البلاغات: بلاغة لسانية كان همها الوحيد هو دراسة الصور البلاغية وتصنيف الخطابات والأجناس الأدبية وفق مقولات بنيوية ولسانية، وبلاغة أسلوبية كان مرتكزها هو دراسة الأسلوب ووصفه في مختلف تجلياته الفنية والجمالية ، وبلاغة حجاجية استهدفت دراسة الخطابات السياسية والقضائية والاجتماعية والفلسفية والأخلاقية وفق رؤية حجاجية أرسطية جديدة، وبلاغة سيميائية استخدمت آليات البلاغة في التعامل مع مجموعة من الأنساق السيميائية البصرية والمرئية

والاجتماعية كالموضة والصورة والطبخ والأزياء والإشهار . . .، وبلاغة تداولية كان هدفها دراسة مبحث الإنشاء والخبر وفق رؤية لغوية تداولية وظيفية، قائمة على نظرية أفعال الكلام والاستلزام الحواري.

خاتمـــة

وهكذا، نصل إلى أن الحجاج يهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية هي: التأثير، والإقناع، والحوار. ولا يمكن الحديث عن الحجاج إلا إذا استحضرنا مجموعة من العناصر البارزة، مثل: طرفي التواصل الأساسيين: المتكلم والسامع، والنوايا والمقاصد، والموضوع والقواسم المشتركة والتمثلات المتشابهة، سواء أكانت تلك التمثلات ثقافية أم لغوية أم اجتماعية، بله عن السياق التلفظي بما فيه الزمان والمكان والثقافة.

هذا، ويمكن الحديث عن مجموعة من النظريات الحجاجية قديما وحديثا، منها: نظرية الجدل، كما نتبينها بوضوح في الثقافة اليونانية عند زينون الإيلي وسقراط والسوفسطائيين وأفلاطون، ونلاحظها أيضا في الفكر الإسلامي في العصر الوسيط مع علماء الكلام والنحو وأصول الفقه، وقد تعمق فيها مؤخرا ممثلو الجدلية التداولية المعاصرة.

وهناك أيضا نظرية الحجاج الكلاسيكي عند أرسطو الذي ربط البلاغة بالحجاج الإقناعي، من خلال التركيز على اللوغوس والإيتوس والباتوس. ويمكن الحديث كذلك عن بلاغة حجاجية عند الأرسطيين الجدد كشايم بيرلمان (Perelman) وألبريخت تيتيكا (Olbrechts Tyteca)، ونظرية الحجاج التداولي المتعلقة بأفعال الكلام والاستلزام

الحواري عند جون أوستين(J.Austin)، وسورل (Searl)، وكرايس (Paul Grice)، وأحمد المتوكل...، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أموسيRuth Amossy، ودومينيك مانكونو(Maingueneau)، وميشيل ماير(Michel Mayer) ، وفايركلوث Fairclough، وموشلر(Moeschler)...، ونظرية الحجاج المنطقي الطبيعي مع السويسري جان بليز غرايس(J Blaise Grice).

وينتهي الفصل الأول بوضع أسس المقاربة الحجاجية، بغية التعامل مع الخطابات والنصوص والملفوظات اللغوية واللسانية التي تحوي ملامح حجاجية إما بشكل واضح وإما بشكل مضمر.

أما الفصل الثاني، فيتناول البلاغة الكلاسكية والبلاغة الجديدة. ومن ثم، فقد تبين لنا بأن البلاغة، في مسيرتها التاريخية الطويلة، قد مرت بمرحلتين أساسيتين على المستوى المعرفي والفني والجمالي هما: مرحلة البلاغة التقليدية التي كانت بلاغة معيارية تعليمية، تقوم على تزويد الخطيب أو الكاتب أو المبدع بمجموعة من الأدوات والتقنيات والآليات الإجرائية في الفصاحة والبلاغة والبيان، ليتبوأ مكانة سامية في فن القول والكتابة والإنشاء. وقد تأرجحت هذه البلاغة الأداتية ذات الطابع التعليمي بين السفسطة والإقناع والإمتاع وتعليم البيان. ويلاحظ أن المدرسة الأرسطية القديمة كانت متميزة بآرائها الحداثية التي سبقت عصرها، خاصة تلك الآراء التي ارتبطت بالإقناع والحجاج تنظيرا وتطبيقا.

ومع منتصف القرن العشرين، تبلورت بلاغة جديدة علمية ووصفية، تبحث في الملفوظ البلاغي بنية ودلالة ووظيفة وتواصلا وتصنيفا، وقد اتخذت هذه البلاغة الجديدة اتجاهات مختلفة ومتنوعة. وفي هذا الصدد، يمكن الحديث عن بلاغة لسانية كان همها الوحيد هو دراسة الصور البلاغية، وتصنيف الخطابات والأجناس

الأدبية وفق مقولات بنيوية ولسانية، وبلاغة أسلوبية كان مرتكزها هو دراسة الأسلوب ووصفه في مختلف تجلياته الفنية والجمالية ، وبلاغة حجاجية استهدفت دراسة الخطابات السياسية والقضائية والاجتماعية والفلسفية والأخلاقية وفق رؤية حجاجية أرسطية جديدة، وبلاغة سيميائية استخدمت آليات البلاغة في التعامل مع مجموعة من الأنساق السيميائية البصرية والمرئية والاجتماعية، كالموضة والصورة والطبخ والأزياء والإشهار ...، وبلاغة تداولية كان هدفها دراسة مبحث الإنشاء والخبر وفق رؤية لغوية تداولية وظيفية، قائمة على نظرية أفعال الكلام والاستلزام الحواري.

وآخر ما نختتم به كتابنا هو أن البلاغة المعاصرة قد أصبحت اليوم إمبراطورية منفتحة على تخصصات علمية عدة، ولها امتدادات واسعة، عبر فضاءات معرفية شاسعة، بل أضحت مدخلا لا يمكن القفز عليه في المجال العلمي والأدبي والفني والثقافي، ومازالت مجموعة من العلوم والتخصصات تسترشد بآليات البلاغة في خطاباتها المعرفية المختلفة والمتنوعة إن نظرية وإن تطبيقا.

المصادر والمراجع العربية

— القرآن الكريم برواية ورش لقراءة نافع .
— **ابن خلدون** :*تاريخ ابن خلدون*، الجزء الأول، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة.
— **ابن رشد:** *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*، *دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة* 1999م.
— **أبو بكر العزاوي:** *(من المنطق على الحجاج)*، *حاوره: حافيظ إسماعيلي علوي، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد* 61، سبتمبر 2004م.
— **أبو بكر العزاوي:** *اللغة والحجاج*، مطبعة العمدة في الطبع ، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.
— **أحمد المتوكل:** *اللسانيات الوظيفية*، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 2010م.
— **أرسطو:** *فن الخطابة*، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 2008م.
— **أمينة الدهري:** *الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة*، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2010م.
— **بيير غيرو:** *الأسلوبية*، ترجمة:منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري،حلب، سورية.
— **جون أوستين:** *نظرية أفعال الكلام العام*، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2006م.
— **حنون مبارك:** *دروس في السيميائيات*، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى سنة 1987م.
— **د.رضوان الرقبي:** (الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله)، *مجلة عالم الفكر*، الكويت، العدد2، المجلد 40، أكتوبر- ديسمبر 2011م.

— **رولان بارت**: *مبادئ في علم الأدلة*، ترجمة: محمد البكري، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.
— **رولان بارت**: *المغامرة السيميولوجية*، ترجمة: عبد الرحيم حزل، دار تينمل للطباعة والنشر،مراكش، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1993م.
— **ديفيد كارتر**: *النظرية الأدبية*، ترجمة: د.باسل المساله، دار التكوير للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى سنة 2010م.
— **صلاح فضل**: *مناهج النقد المعاصر*، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2002م.
— **فيصل الأحمر**: معجم *السيميائيات*، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى 2010م.
— **قدور عبد الله ثاني**: سيميائية *الصورة*، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى سنة 2007م.
— **عبد الله الغذامي**: *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية*، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2000م.
— **عواد علي**: *معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1990م.

المراجع الأجنبية

— Amossy, Ruth : *L'argumentation dans le discours*, Paris, Colin, 2006.
— ANSCOMBRE J. C, DUCROT. O : *L'argumentation dans la langue*, Bruxelles, Mardaga, 1983.
— Bakhtine, Mikhail (Volochinov) : *Le marxisme et la philosophie du langage*, Paris, Minuit, 1977.
— Benveniste, Emile : *Problèmes de linguistique générale*, t.2 Paris : Gallimard, 1974.
— Breton, Philippe : *L'argumentation dans la communication*, Paris : La Découverte,.1996
— Catherine kerbrat-Orrecchioni : *Ennonciation de la subjectivité dans le langage*, Paris, Armond Colin, 1980.
— Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : T*raité de l'argumentation :La nouvelle rhétorique*, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.

— Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : *Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique*, Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles, 2009. Et Le Champ de l'argumentation, Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles, 1969.
— Charaudeau, Patrick : *Le discours politique. Les masques du pouvoir* .Paris : Vuibert, 2005.
— C. L. HAMBLIN: *Fallacies* (London, Methuen, 1970), rééd. Newport, VA, Vale Press, 1986.
— Douglas Walton : *Plausible Argument in Everyday Conversation*, SUNY Press, 1992, p. 177.
— Douglas Walton : *The New Dialectic : Conversational Contexts of Argument*. Toronto : University of Toronto Press, 1998.
— Hintikka, Jaako : (Is Logic the Key to All Good Reasoning ?). *Argumentation*, vol. 15, n° 1, 2001.
— GATTICO, Emilio : (Schématisation et logique naturelle). Relations formelles et non formelles. Université de Neuchâtel, Travaux du Centre de Recherches Sémiologiques, 1993, n° 61, p. 97-137.
— G.Genette : (La rhétorique restreinte) *Communications*, Année 1970 , Volume 16 , Numéro 16 , pp. 158-171.
— GRIZE, Jean-Blaise : (L'*argumentation* : explication ou séduction), L'argumentation. Presses Universitaires de Lyon, 1981.
— Grize, Jean-Blaize : *De la loqique à l'argumentation*, librairie Genève et Paris Droz, 1982.
— Grize, Jean-Blaize : *Logique et langage*, Paris, Ophrys, 1990.
— Grize, Jean-Blaize :(Logique Naturelle Et Représentations Sociales), *Papers on Social Representations - Textes sur les Représentations Sociales* (1021-5573) Vol. 2 (3), 1-159 (1993).
— Groupe μ : *Traité du signe visuel. Pour une rhétorique de l'image*. Paris : Seuil.1992.
— JAKOBSON, R. *Essais de linguistique générale*, Paris, Éditions de Minuit, 1963.
— Jean Dubois et autres : *Dictionnaire de linguistique*, Larousse, Paris, 1991.
— J.L. Austin : *Quand dire, c'est faire*, Editions du Seuil, Paris, 1970.

— John R.Searle : *les actes de langage*, Collection, Savoir, Hermann, Paris, 1972.
— John R.Searle : l*es actes de langage*, Collection, savoir Hermann, Paris, 1972.
— Kerbrat-Orecchioni, Catherine: *Ennonciation de la subjectivité dans le langage*, Paris, Armond Colin, 1980.
— Kerbrat-Orecchioni, Catherine : *Les interactions verbales*, t. I, Paris, Colin.1990
— Klinkenberg, J-M. M : *Précis de sémiotique générale.* Bruxelles : De Boeck.1996.
— Krabbe, Erik C. et J.A. van Laar: (About Old and New Dialectic: Dialogues, Fallacies, and Strategies). *Informai Logic*, vol. 27, n° l, 2007, p. 27-58.
— Meyer, Michel : *Qu'est-ce que l'argumentation* ? Paris, Vrin, 2005
— O. Ducrot : (notes sur l'argumentation et l'acte d'argumenter), *Cahiers de linguistique française*, Genève, n° : 4,1982 ; (opérateurs argumentatifs et visée argumentative), Cahiers de linguistique française, Genève, n° : 5,1983.
— Oléron, Pierre : *L'argumentation* , Paris, PUF,1987.
— Oswald Ducrot /Tzvetan Todorov: *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, collection Points, édition du Seuil, 1972.
— Plantin, Christian : *L'argumentation*, Paris, PUF, « Que sais-je? », 2005.
— Toulmin, S.E. : *Les usages de l'argumentation*, Paris, PUF, 1993.
— S.TOULMIN : *The Uses of Argument* (Cambridge, Cambridge University Press, 1958), Trad., Les Usages de l'argumentation (Paris, PUF, 1992). Voir aussi la dernière version« Updated » en anglais de 2003.
— Van Eemeren, Frans H., Grootendorst, Rob and Snoek Hoekemans, Francesca : *Fundamentals of Argumentation Theory*. NJ / London, Erlbaum, 1996.
— Woods J. et D.N. Walton: Critique de l'argumentation: Logiques des sophismes ordinaires. Paris: Kimé, 1992.

الفهــرس

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2014
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف :04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05
الفاكس :20 29 25 22 05 / 80 00 44 22 05
39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء
مكتب التصفيف الفني : 54 / 53 67 29 22 05
الفاكس : 72 38 48 022
البريد الإلكتروني :E.mail : africorient@yahoo.fr



من الحجاج إلى البلاغة الجديدة

يتناول هذا الكتاب البلاغة بين مرحلتين: مرحلة البلاغة الكلاسيكية ومرحلة البلاغة الجديدة. وإذا كانت البلاغة التقليدية بلاغة معيارية تعليمية تربط فن البلاغة بالخطابة والإقناع والإمتاع والبيان، فإن البلاغة الجديدة قد تعاملت مع الخطابات النصية المختلفة، منذ منتصف القرن العشرين، تعاملا علميا وصفيا جديدا، ضمن مجموعة من الاتجاهات: لسانية، وأسلوبية، وحجاجية، وتداولية، وسيميائية. وأكثر من هذا، أصبحت للبلاغة اليوم إمبراطورية واسعة، وامتدادات شاسعة.

ومن جهة أخرى، يتناول الكتاب مجموعة من النظريات الحجاجية القديمة والمعاصرة من بينها: نظرية الحجاج الجدلي، والنظرية الكلاسيكية في الحجاج البلاغي مع أرسطو، والنظرية الجديدة في الحجاج البلاغي مع الأرسطيين الجدد كشايم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا، ونظرية الحجاج اللغوي مع أنسكومبر و أوزوالد دوكرو، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أموسي وميشيل ماير وغيرهما، ونظرية الحجاج المنطقي الطبيعي مع جان بليز غرايس، ونظرية الحجاج التداولي المرتبطة بأفعال الكلام والاستلزام الحواري. وبعد ذلك، يستعرض الكتاب كذلك أهم مبادئ المقاربة الحجاجية على مستوى التحليل والتطبيق والإجراء.



Les Maqamat d'Hariri, peinture d'Al-Wasiti, début XIV[e] siècle, BNF.


ISBN 9981-25-944-7
9 789981 259447